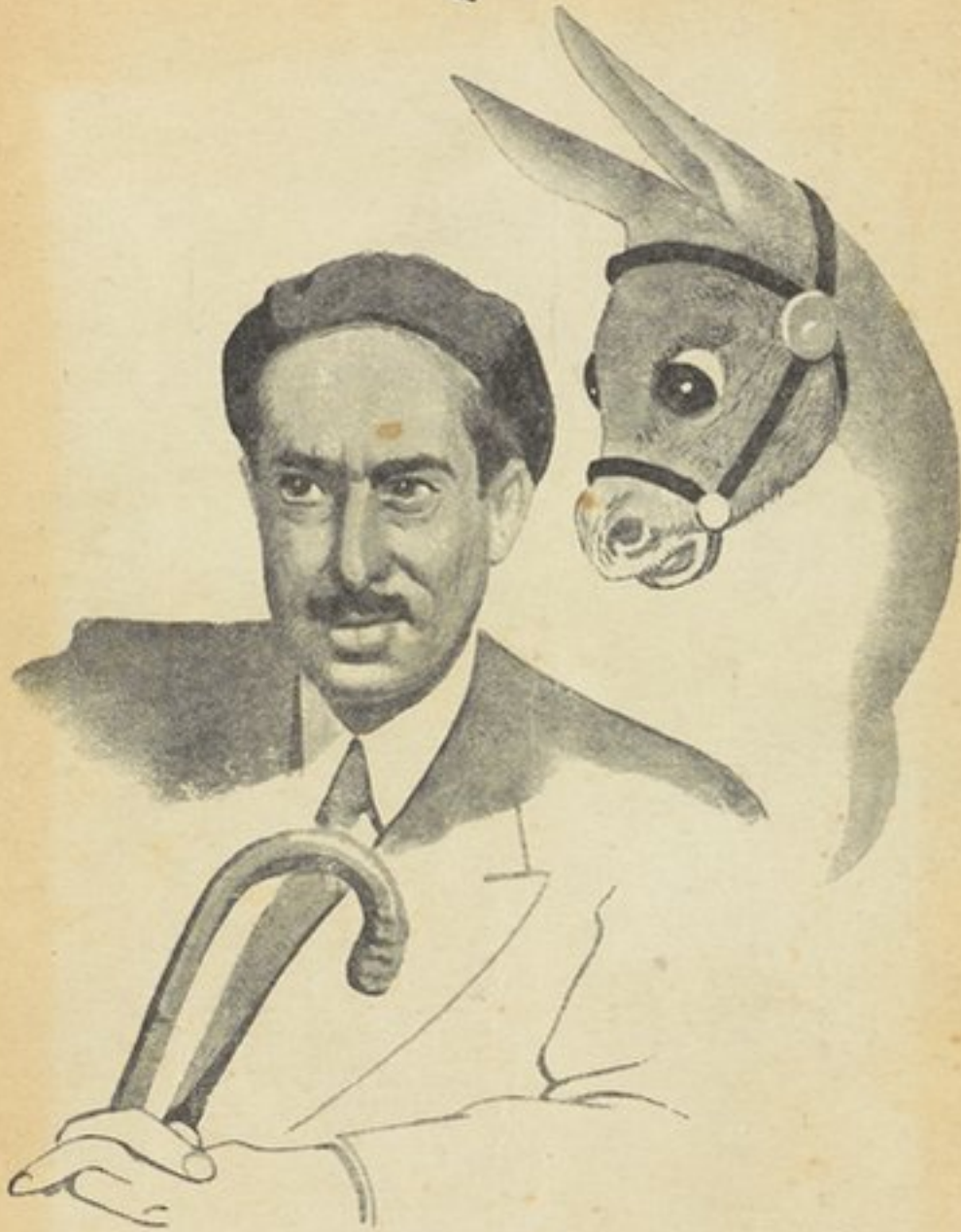


Princeton University Library



32101 072538935

وفيق الحكيم



عمارة قال لي

22

عمر زکی ذوالقرنین

al-Hakim, Tawfiq

توفیق الحکیم

Himārī qāla li

حماری قال لی ...



مبتسم الطبع والنشر
دارالمعارف

روى عن النبي أنه قال :

“إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً”

عن أبي هريرة .

كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية :

- محمد : الطبعة الأولى عام ١٩٣٦ والطبعة الثانية ١٩٣٦
شهر زاد : الطبعة الأولى عام ١٩٣٤ والطبعة الثانية ١٩٤٤
أهل الكهف : الطبعة الأولى عام ١٩٣٣ والطبعة الثانية ١٩٣٣
والطبعة الثالثة عام ١٩٤٠ والطبعة الرابعة ١٩٤٤ .
عودة الروح (في جزئين) : الطبعة الأولى عام ١٩٣٣ .
أهل الفن : الطبعة الأولى عام ١٩٣٤ .
المسرحيات في (مجلدين) : المجلد الأول : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة
في القلب ، جنسنا اللطيف . عام ١٩٣٧
المجلد الثاني : الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام
شباك التذاكر ، الزمار ، حياة تحطمت ١٩٣٧ .
عصفور من الشرق : الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ والطبعة الثانية ١٩٤١
والطبعة الثالثة ١٩٤٣ .
يوميات نائب في الأرياف : الطبعة الأولى عام ١٩٣٧ والطبعة الثانية لحساب وزارة
المعارف ١٩٣٧ .
عهد الشيطان : الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ والطبعة الثانية ١٩٤٢ .
راقصة المعبد : الطبعة الأولى عام ١٩٣٩ والطبعة الثانية ١٩٤٠ .
حمار الحكيم : الطبعة الأولى عام ١٩٤٠ والطبعة الثانية ١٩٤٢ .
تحت شمس الفكر : الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ والطبعة الثانية ١٩٤١ .
سلطان الظلام : الطبعة الأولى عام ١٩٤١ والطبعة الثانية ١٩٤٢ .
القصر المسحور : بالاشتراك مع الدكتور طه حسين بك عام ١٩٣٦ .
تاريخ حياة معدة : عام ١٩٣٨ .

65-14

2271
255
349
1945

- براكا أو مشكلة الحكم : عام ١٩٣٩ .
 نشيد الأناشيد : عام ١٩٤٠ .
 من البرج العاجي : عام ١٩٤١ .
 تحت المصباح الأخضر : عام ١٩٤٢ .
 بجماليوت : الطبعة الأولى عام ١٩٤٢ والطبعة الثانية ١٩٤٤ .
 سليمان الحكيم : عام ١٩٤٤ .
 زهرة العمر : الطبعة الأولى عام ١٩٤٣ والطبعة الثانية ١٩٤٤ .
 الرباط المقدس : عام ١٩٤٤ .
 حمارى قال لى : عام ١٩٤٥ .

والتي نشرت في لغة أجنبية :

- شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكون
 عضو الأكاديمية الفرنسية .
 عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في لينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية
 في باريس عام ١٩٣٧ .
 يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية طبعة أولى ١٩٣٩ وطبعة ثانية
 ١٩٤٢ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفي باشا .
 أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
 لجانستون فييت مدير دار الآثار العربية .
 عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١ .

من هو « حمارى » ؟

الحمار له فى حياتى شأن . إنه عندى كأئن مقدس كما كان الجعران عند المصريين القدماء . لقد عرفته منذ صغرى فى صورة جحش جميل اشتراه لى أهلى بثلاثين قرشاً . وجعلوه لنزهتى فى الريف .. وكانت له برذعة صغيرة حمراء لا أنساها ... وكنا خير رفيقين لا نفترق إلا للنوم . فقد كان فى مثل سنى ... أى فى طور الطفولة من فصيلته كما كنت أنا فى طور الطفولة فى جنسى . على هذه الحال من المودة عشنا حتى فرقت بيننا الأيام .. فذهبت أنا إلى مدارس الحضر وبقى هو فى ريفه .. وعدت فى الصيف بعد أعوام فوجدت الحياة قد تنكرت له . فالبرذعة الحمراء قد نزلت من فوق ظهره وألقى بها فى مكان مهجور ... ووضع مكانها « غبيط » يحمل فيه التراب والسماد والطين .. فدنوت منه ومسحت رأسه المعفر بكفى ، فنظر إلى نظرة حزينة وكأنه يقول لى : « أرايت ؟ لقد ذهبت الطفولة وولت أيام الهناء ؟ » وحزّت تلك النظرة فى قلبى ونظرت إلى من حولى قائلاً : « أما كنتم تستطيعون أن تجنبوه هذا العمل الشاق المهين .. وتجعلوه على الأقل للركوب ! » وكأنه فهم عنى فقد رفع رأسه نحوى وكأنه يقول : « لا فائدة ! لا تجهد نفسك معهم .. ما من أحد غيرك يعرف لى قدراً ! »

ولم تستطع شفاعتي أن تغير شيئاً مما كتب عليه . . . فتركته لمصيره . . . ثم بلغت مرحلة الشباب وفرغت من الدرس واشتغلت بتأليف الروايات التمثيلية . . . فلم يفتنى أن أجعل من الحمار شخصية في رواية لي . فظهر على المسرح ولم أره للأسف . فقد كنت غادرت مصر وذهبت إلى أوروبا . فجاءتني الأخبار بأن الحمار أدى واجبه على أكمل وجه . . . وقام بدوره في الرواية على نحو يستحق الإعجاب . . . ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهور المشاهدين نظرة عميقة . . . ثم فعل فعلة غير لائقة لوثت خشبة المسرح . . . وخرج بين سخط الممثلين وهرج النظارة والمتفرجين . وقد بلغنى أنه ضرب عندئذ وطرده وأهين ولو كنت أنا حاضراً لدافعت عن ذلك المسكين . . . وأغلب ظني أنه أدرك بغير زته أن الجمهور لم يفهم الرواية . . فناب عنى في إظهار احتقاره له بالطريقة التي رآها مواتية . . .

ومضى نحو عشرين عاماً فرأيت الجحش مرة أخرى في شوارع القاهرة واشتريته بثلاثين أو خمسين قرشاً مرة أخرى . ولكن هيهات . . . لقد كان هو في طفولته وأنا في كهولتي . . . فلم يكن بيننا غير صمت طويل انتهى بموته . . . أتراه أدرك بسليقته أن أوان اللعب قد فات بالنسبة إلى ! فآثر أن يتركنى سريعاً قبل أن أستكشف بنفسى هذه الحقيقة فأحزن ؟ . . . لقد سميت « الفيلسوف » وقد علمنى أشياء كثيرة بمجرد صمته وارتفاعه عن لجج هذا البحر الخضم . . . بحر السخف الانساني ! .

ثم رأيت الحمار بعد ذلك في الريف أثناء زيارة قصيرة في أحد الأعياد . . .

ذهبت للراحة بضعة أيام .. وقد خطر لى أن أصطاد السمك فى جدول غير بعيد .. فسرت على أقدامى مع بعض الفلاحين يحملون لى عصا الصيد ... وساء تقديرى لقوة احتمالى السير ... فقد شعرت بالجهد والتعب بعد مائة خطوة .. ولم يجدوا لى حيلة غير وضعى على صهوة حمار من حمير التراب كانت تعمل فى حقل قريب . ولم أر والله فى حياتى أتعس ولا أشقى من ذلك الحمار .. كان الدم يقطر من ظهره لثقل « الغبيط » وهزال جسمه وبروز عظمه ولا أحد يرحم .. وكان يتضور من الجوع ويمد بوزه إلى كل عود أخضر يجده فى الطريق فلا يلتقى غير اللحم ممن يقودونه ولا يظفر بغير اللطم . لقد كان ذلك الحمار ملكا لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحين الذين لا يملكون للحمير قوتا .. ولا يدخرون ما عندهم من « العليق » إلا للجاموسة والبقرة التى تدر اللبن .. أما الحمار فهو فى نظرهم لا يساوى أكله ... وهو يذكر عند المهمة العنيفة والعمل الشاق .. ولكنه ينسى عند حلول الأكلة النظيفة . فعلى المسكين إذن أن يلتقط ما يصادف فى طريقه من عشب مهمل أو ورق زرع متروك . وليتهم مع ذلك يدعونه يفعل .. فهم يدعونه فى ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلا لالتقاط رزقه من الأرض .. بحجة أنه يتلكأ ويتلاكع ويتكاسل عن عمله المفروض . أما إذا حدثته نفسه اللعينة فمال برقبته على حقل للأذرة وفقد رشده وخرج عن وعيه وهبر بأسنانه عوداً منها أو كوزاً دانياً ... فهى الطامة التى لا تدانىها طامة ... فان الصياح يعلو من كل جانب ويهرع أصحاب الزراعة بالهراوات

ينهلون بها على المسكين وهم يتصايحون : « حوشوا الحمار نزل غيظ
الذرة ! » . . . ذلك هو الحمار الذي امتطيته ذلك العصر . . . وقد وجدت
مشيته أبطأ من مشيتي . . . ولكنى فهمت السبب . فتركته يسير كما يشاء ،
ويلتقط ما شاء . . . ونهرت كل من أراد بالضرب حثه على الركض . بل
لقد فعلت أكثر من ذلك . . . لقد تركته وقد شعر ولا شك بتسامح راحبه
أن يمدفه إلى كوز ذرة دنا من طريقه . . . وشرع الفلاحون فى الصياح
فأسكنهم فى الحال بقولى : « أتركوه ! أتركوه ! » فسكتوا مرغمين . . . أما
هو فقد طحن الكوز بأسنانه طحناً سمع له خشخشة . وبلغ فكان الحركة
البلع فى حلقه معمة . وخيل إلى أنى أرى الطعام يحدث عنده لذة لم يحسها
المسكين منذ أمد طويل . . . وسار بعد ذلك وكأن كل خطوة من خطواته
تسبيحة حمد وشكر . إلى أن بلغنا الجدول المقصود . فترجلت وأخذنا فى
الصيد ، وأوصيتهم أن يتركوا الحمار يعى الكلاً النابت على حافة الماء . . .
وشهد الله لقد كانت ساعة لم ينعم بمثلها . . . والله إذا أعطى فانه يعطى أحياناً
بغير حساب . . . فقد تهيأ لذلك الحمار السعيد وقتئذ الماء والخضرة . .
فأظفروه الله بالباقي : أى الوجه الحسن فى صورة حمارة شابة كانت ترعى
هى الأخرى مع بعض خراف ونعاج على مقربة منه . . . فما راعنى وأنا
مشغول بصيدى إلا صوت من بين الفلاحين يصيح : « حوشوا الحمار
والحمارة . . ! » فالتفت فاذا المغازلة على أتمها بين الحبيبين . فقلت لهم :
« أتركوهما ! .. » فتركوهما حتى انفصل أحدهما عن الآخر . وفرغت أنا من

صيدى ، فركبت الحمار عائداً وهو يركض بى كالمرح ، فقد أكل وشرب
وتنزه وغازل . . إنها لحظة من الهناء قد سرنى وأسعدنى أنى أتحتها له . .
ولكن القدر قد جعله يدفع ثمنها بعد ذلك غالباً . . فالملكتوب عليه الشقاء
يجب أن يحاسب على كل فرحة تتسرب إليه خلسة من يد القدر النائم . .
ولم يمض بالفعل أيام حتى سمعت أن ذلك الحمار قد نفق جوعاً وسقط إعياء وسط
الحقل رازحاً تحت أثقال ما يحمل من تراب . . . فالتى الفلاحون بجثته فى
المصرف . . ولم يكلفوا أنفسهم حتى مؤونة دفنه ، وضنوا عليه حتى بذلك التراب
الذى قضى حياته التعسة كلها فى حمله على ظهره . . . فلما بلغنى ذلك أمرتهم
أن ينتشلوا جثته من الماء فى الحال وأن يدفنوه . . . ولست أدرى حتى هذه
اللحظة أفعالوا أم سخرروا منى وكذبوا علىّ وتغافلوا عنه حتى جرفه التيار . . .

من بين هذه الحمير الأربعة أين حمارى الذى يحادثنى هنا وأحادهه ؟ ! .
إنه ليس واحداً بالذات من بينها . إنه جميعها . . . إنه هو كلها مجتمعة فى
واحد . . . هو روح هذه الأربعة التى عرفت . . إنه النوع بفصائله ، والفصيالة
بصفاتى . . إنه أى حمار رأيت ، أو لم أره . . مهما تكن ظروفه ومصائره . .
أى حمار من تلك الحمير التى أعرف أو لا أعرف هو لى صديق . . . أحبه
وأحذب عليه وأفهم ما يجول فى خاطره . . وأنظر إلى عينيه وأصغى إليه ،
فيخيل إلى أن صمته الطويل قد انفرج عن حديث مؤنس يدل به إلى
وأسئلة طريفة يلقيها على . . .

حمارى والطوفان !

جلس حمارى إلى جوارى كما اعتاد وقال :

— أخشى أن ثور كبرياؤك ذات يوم فتترفع عن مجالسة مثلى !
قالها بنبرة أعرفها فى صوته . إنه مخلوق يجيد نوعاً من السخرية ، ليس
من الهين أن يلمح فى كل الأحيان . . . لأنه مغلف فى طيات التواضع
والتسليم والإذعان . ولكنى أعرف فيه أيضاً قوة المقاومة وصلابة المراس . .
وشيثاً من الاعتداد بالذات لا يظهر إلا إذا وخز وخزة تجرح نفسه . . . لذلك
أجأ معه إلى المزاح فى القول والإغلاظ فى التهكم حتى أرغمه على مصارحتى
بكل مشاعره . . . فأجبتة :

— وأنا أخشى أن يركبك الوهم فتحسب أن لا فرق بينى وبينك !
— لا تخف . إن الوهم لا يركبنى أبداً . . . لم يركبنى غير الواهين !
— من أمثالنا معشر البشر ! أليس هذا ما تعنى ؟
— ما أردت أن أمس كرامتك . إن بيننا وبينكم صلوات ود من قديم .
لقد زاملناكم وركبنا معكم سفينة نوح فى عهد الطوفان . . .
فأدركت غرضه الخفى من الإشارة إلى هذا المستند التاريخى . . .
وبادرت أقول :

— ليس هذا بدليل على الزمالة . . . لقد ركبت معنا كل الحيوانات ،
مما يؤكل ومما لا يؤكل . . . من الأسد والفيل إلى الفأر والخنزير . واقرأ
تاريخ أبي الفداء تجد فيه أنه كانت للسفينة ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب
والوحش ، وطبقة فيها الأنس ، وطبقة فيها الطير . ولقد فكرنا نحن الإنس فيك
وخفنا على أمثالك من الدواب أن يفترسها الأسد . فدعا نوح ربه فسلط
على السبع الحمى ، فكانت أول حمى نزلت في الأرض . . ثم شكوا الفأرة
لإفسادها الطعام والمتاع فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه
فتخبأت الفأرة منها . . . وكثر أرواث مثلك من الدواب ، فأوحى الله إلى
نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوق وقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث . .
إلى غير ذلك مما حدث في السفينة وتدبرناه نحن معشر الأنس بفكرنا الناضج
حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير المشاكل التي تقتضى الحل
وتستوجب التدبير . . . ولم نر منكم معونة ولا زمالة تهون علينا
مخرجات ذلك الموقف الخطير . . .

— لا تتكلم عن فصيلتي . . لقد كان لنا رأى في السفينة والظوفان . .
وما دمت تذكر التاريخ والمؤرخين فارجع إليهم ينبئوك أن آخر
ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار ! . . .

— وما هو ، من فضلك ، رأيكم في السفينة والظوفان ؟ . .
— لا تسألني رأبي . . بل أجبنى أنت بفكرك الناضج ، لماذا كان
الظوفان وكانت السفينة ؟ . .

— لماذا؟ للظلم والفساد اللذين كانا قد عمّا الأرض . وللضلالة والطفليان
وعبادة الأصنام والأوثان .

— من أجل ذلك أغرق الله الأرض بما فيها من شرور وآثام وبمن
عليها من طغاة وأصنام ، إلا تلك النخبة الصالحة المنتقاة التي وضعت في
السفينة ، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير ، وأجيالا جديدة
يقودها الحق . . .

— هو ذاك؟

— وهل ساد بعد ذلك الخير ، وانتصر الحق؟!

— ماذا تعنى؟

— ألم يقل لك مؤرخوك إن قوم عاد « كانوا أول من عبد الأوثان بعد
الطوفان؟ » . . . كل شيء رجع فنبت من جديد . . . بعد أن غيض الماء . . .
وبلعت الأرض ماءها ، ورجعت الحمّامة إلى نوح وفي منقارها ورقة الزيتون
وفي رجلها الطين . . . واخضر وجه الأرض ونبت فيها الزرع والضرع والخير
والشر . أقوى مما كان وأخصب . . .

— نعم . . . نبت الشر من جديد . . . أتدرى لماذا؟ لأن إبليس كان
قد دخل السفينة مع من دخل ولم يغرّقه الطوفان مع من أغرق . أتدرى
كيف تسلل إبليس إلى السفينة؟

— لا . . . كيف تسلل؟

— يروى عن المؤرخ ابن عباس أن إبليس دخل متعلقاً بذنّب الحمار! .

- أو كان ابن عباس هذا شاهد عيان؟! —
- لست أدري . إنما أحدثك بما جاء في بطون الكتب .
- خير لك أن تحدثني برأيك أنت في نتيجة كل ذلك؟ —
- نتیجته أن نوحا خرج بعد ذلك إلى الأرض هو ومن معه من إنس ودواب . . . وابتنى مذبحاً لله ، وأخذ من الطير والدواب الحلال فذبحها قربانا إلى الله سائلا إياه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض . . فعهد الله إليه أن لا يعيده ، وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام ، وهو قوس قزح الذى قال ابن عباس إنه أمان من العرق ، وقال آخرون إنه قوس بلا وتر أى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة . .
- الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة ، بعد أن ثبتت قلة جدواه فى المرة الأولى!
- أنت تقصد ولا شك طوفان الماء . . هذا حقيقة لم يحدث غير مرة . وقد وعد الله بأن لا يعيده . . ولكنه استعاض عنه بطوفان من نوع آخر يحدث فى كل جيل مرة أو أكثر . . . ذلك طوفان الدماء! . .
- حتى طوفان الدماء ماذا صنع؟ وماذا أجدى؟ ألم تكن الحرب الكبرى الماضية طوفان دماء؟
- طبعا .
- لقد انتهت النازلة وختمت المجزرة ، وشربت الأرض دماءها وابتعلت آثامها . . . وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حطمت . . .

وأوثان الطغيان قد هدمت . وأن الحق وحده هو المسيطر وأن الخير هو المنتصر . . . وأن الدول الصغيرة والدول الكبيرة سواء أمام سلطان الحق وحده . . . وأن الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساوية أمام سيد واحد هو : النفع العام لبني الانسان دون أثرة أو نعمة . . . ونهض الناس ينظرون في كل أمة إلى قوس النصر وقبر الجندي المجهول كما نظروا إلى قوس قزح . . . سائلين الله أن لا يعيد الحرب مرة أخرى . . . فما الذي حدث ؟ أجبنى ما الذي حدث بعد ذلك ؟

— حدث الذي حدث في الطوفان الأول بلا زيادة ولا نقصان . . .

حدث أن تعلق ابليس بذيل . . .

— بذيل من ؟

— بذيل الرئيس ولسون ! . صاحب المبادئ الأربعة عشر المشهورة

التي كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام .

— إذن لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر ؟

— بالطبع . . . وها نحن أولاء في طوفان جديد . . . لم تبتلع الأرض

بعد دمائه ، بل لو ذهبت الحماسة لما وجدت ورقة زيتون تلتقطها ولا عشا

تأوى إليه . . . فقد ضربت القنابل كل بناء وهدمت كل جدار . . .

ولكن الناس يهتملون كل ذلك صابرين ، وينظرون إلى الغد مستبشرين ،

ويعللون أنفسهم بأن هذا آخر طوفان . . .

— كما قالوا في كل مرة . . .

— أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل وأن تبلغ رشدها . وأن تتحرر
نهائيا من طغيان الغرائز الدنيا . . وأن تكف عن تمزيق بعضها بعضاً ،
وأن ترتفع إلى حيث تعمل متكاتفه لمصلحة الإنسانية كلها جمعاء ، دون
صغائن ولا سخائم ولا بغضاء . . ودون تمسك بغرور كاذب وعظمة زائفة
وحب تسلط وشهوة سيطرة . . .

— قل بالاختصار دون عبادة لأصنام الكبرياء الذاتى .

— هو ذاك .

— اسمح لى أن أقول إن هذا شيء عسير على الانسان . لا بد للانسان
من عبادة الأصنام . . لم يستطع طوفان الماء ولا طوفان الدماء أن يفرق
الأصنام التى يصنعها الانسان لنفسه ! . . إن الانسان غير قدير ولا جدير
بعبادة الله . . . لأن الله لا يميز بين جنس وجنس ولا فصيلة وفصيلة . . .
هو النور العام الذى يضى كل الكائنات . . وهو الحب العام الذى
يربط كل شيء بكل شيء . . ولكن الانسان لا يفهم ذلك . . . إنه
لا يرى إلا ذاته المحدودة ، ولا يعبد إلا ما تصنع له يده من صور نفسه
الجشعة الأثرة المتعجرفة العمياء . . . كلا . . . إن الله بعيد بعيد عن الانسان . .
وإنه أرفع وأعلى وأعمق من أن يتصل به الانسان . . . ربما كنت أنا
وفصيلتى أقدر على حبه . وهل سمعت منذ بدء التاريخ أن فصيلة الحمير
عبدت أصناما ؟ !

— إني معك . . مع الأسف .

— أجبني إذن : ما فائدة الطوفان إذا كان ...
— إذا كان لا يستطيع أن يفرق ابليس ؟ !
— أرجو قبل كل شيء أن لا تصدق أن ابليس دخل السفينة متعلقا
بذيل الحمار ..

— بل هذا أصدقه ..

— تصدق هذا ؟ !

— بالتأكيد ... لأن الحمار يحمل نفسا صافية ، ومبادئ مثالية ..
وابليس خبيث يحب العبث والسخرية ، ولا يحلوه أن يعبث ويسخر إلا
من أصحاب النفوس الخيرة والمثل العليا ! .. فلا عجب إذا دخل مكانا أن
يتعلق بتلابيب أطيب القوم قلبا . وأسماهم فكراً .. إنه لا يلازم التافهين ،
ولكنه يتمسح بذوى الشأن .. إنه يحب الدخول من الباب الكبير ..
لذلك تراني أنظر إلى هذا الطوفان الأخير بعين القلق .. أبحث عن الرجل
المثالي الذي سيدخل في أذياله ابليس ! ..

— أكتب عليكم هكذا معشر البشر أن تعيشوا في سفينة ضالة في
بحر الظلمات .. بغير المثل الأعلى تحيون كالديدان في الحمأة يأكل بعضكم
بعضا .. فإذا وجد فيكم من يحمل مشعل المثل العليا انقلب سخرية
الساخرين ولعبة في أيدي العابثين ! ..

— تلك هي المشكلة ..

— حتى الطوفان لم يحلها ...

— لم يجعل الطوفان ليحل شيئاً... ولكن ليلطف من وقع الأشياء...
إنه حمام يهدى* أعصاب البشرية كلما احتاج الأمر... لقد فقدت
الأمل في وجود العلاج الحاسم... فلم يعد حتى طوفان الدماء في نظري
غير نوع من الحجامة أو الفصد يلجأ إليه الانسان كلما ازداد الضغط...

— أتدرى أين العلاج؟

— أين؟

— عندي..

— عندك؟

— نعم... عندي العلاج... وإذا قلت لك عندي فإنما أقصد
عند فصيلتي... فنحن ن فكر جميعاً تفكيراً واحداً. فليس عندنا حمار
مثالي وآخر مادي.. وليس عندنا زعماء ولا قادة ولا أوثان ولا
أوطان... بل يوجد حمير على أرض الله وكفى... شعورها واحد
وقلوبها واحدة..

— هذا جميل..

— نعم... ولذلك أستطيع، إذا سمحت لي، أن أجد العلاج لكم
معشر الانسان!..

— حقا... هذا هو الذي كان ينقصنا!.. يا لمجد الإنسانية
المنهار!.. أيدلنا القدر هذا الاذلال، فلا نجد من يهديننا إلى علاج أمرنا
غير حمار!؟

— كبرياؤكم... كبرياؤكم... كبرياؤكم الزائل... إنه في دمكم! ..
دمكم الذى فسد.. لا أمل فيكم ولا علاج لكم إلا بعملية نقل الدم...
نقل دم جديد...

— أظنك ستقترح أن ينقل إلينا دم حمير؟!
— لا... إنها لتضحية كبرى من فصيلة الحمير، لا أنصح لها أن
تتحملها من أجلكم!

حمارى وهتلر

جعل حمارى يحدثنى ذات مساء فى الطغيان والطفاعة ، ويسترسل فى الحديث . . . وأنا عنه لاه كالنائم ، وما أنا بنائم . . فلقد انتزعنى خيالى وطاربى وألقانى فى أساطير الماضى : بين يدي « شهرزاد » . . وأنا أعرف شهرزاد كل المعرفة . . وقد أبرزتها فى كتاب . . آه يالها من امرأة ! . شهرزاد ! . . إذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم ، فاعلم أنك لفظت باسم عظيم . فهو اسم تلك التى استطاعت أن تجعل من شهر يار سافك الدماء رجلاً مهذباً محبباً للخير مترفعاً عن العدوان . لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسداً أصم ، أو الريح المنحسبة واحة مقفرة . واهتدى شهر يار بهديها ، وتمت بذلك معجزتها ، فانزوت فى بطون الأساطير . . .

ولكن فى هذا العصر عاد شهر يار جديد إلى الظهور ، لا فى صورة ملك بل فى صورة (فوهرر) يقطن قصرأ لا فى بغداد ، بل فى برختشجان . وهو لا يكتفى بذبح عذراء فى كل صباح ، كما كان يفعل شهر يار الأول . . بل إن « حمام الدم » الذى لديه أرهب وأروع !
وشرد بى الخيال فتصورت شهرزاد تستشيرنى بصفتى مؤلفها فى أن

تذهب إلى الزعيم العصرى كما ذهبت من قبل إلى ملك الزمان الغابر ، لعلها
تظفر بهدايته ، كما ظفرت بهداية سلفه ، ولعلها تنتشله من الطغيان وتربجه
لخير بنى الإنسان . فحمدت لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة ، ولكنى
ترددت إشفاقاً عليها وقلت :

— أيتها العزيزة شهرزاد ! جعلت فداك . لقد خطر ببالى كل ما خطر
لك . ولقد رأيت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد ، فرسمت
« لصاحبنا » من الصور ما سوف يعرض عنقى لمديته ، ولسوف أدعى إلى
حمام الدم وأنا لا أعرف السباحة . فيكون هذا حمامى الأول والأخير . أما
أنت يا ذات الجمال . يا من اعتدت السباحة بجسمك العاجى فى ذلك الحوض
من الممر القائم فى قصرك العجيب ! . . .
فقاطعتنى شهرزاد قائلة :

— أتخشى على وأنا الخالدة! ؟ خف على جلدك أنت أيها المخلوق الهالك !
أكبر ظنى أن إشفاقك هذا ليس على شخصى بالذات ، إنما هو على كتابك
عنى الحامل اسمى الذى سوف يحرق ويباد إذا فشلت فى مهمتى ووقع بينى
وبين هتلر العداء . يا لهؤلاء الأدباء والكتاب ! إنهم يخافون على جلد كتبهم
أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم !
وتركتنى بلا تحية ولا وداع ، واختفت عن بصرى ، وارتفعت فى الفضاء
ومضت إلى قصر « برختشجادن »

كان « هتلر » في ذلك المساء منفردا في قاعة كبيرة من قاعات القصر، يطيل التأمل أمام خريطة حربية، وقد شرد ذهنه واتجهت عيناه إلى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذي يقوم عليه قصره المنيع، وإذا هو فجأة يسمع خلفه حفيف ثوب وهفيف غلالة حريرية، ويشم عطراً شرقياً ملاً جو المكان، فاستدار، فألنى نفسه وجها لوجه أمام امرأة لم يقع بصره قط على أجمل منها.. فعقد لسانه وجد في مكانه، ومرت لحظة أو لحظات.. ثم أفاق قليلا وقال لها كالهامس:

— من أنت..؟

فقال الجميلة:

— أنا شهرزاد جئت إليك من الشرق.

وكأنما غمر هتلر في حلم، فاذا هو لساعته يحس الأشياء من حوله تنحف وترتفع قليلا في الهواء. وحلت عقدة لسانه. وتحرك من مكانه، وخف لاستقبال شهرزاد وكأنه يعرفها معرفة الأصدقاء منذ أعوام. وأجلسها في صدر القاعة. وأراد أن يقدم إليها من الطعام والشراب ما يقدم إلى الأضياف الكرام. فأبت وشكرت، وأشارت إليه بالجلوس والإصغاء، قائلة:

— فلا أخبرك أولاً سريعا، لماذا جئت إليك، إن مقابلتنا الساعة قد

يتوقف عليها مصير العالم.

فقطب هتلر جبينه وزالت عنه قليلا غمرة الحلم وقال:

— جئت في مهمة سياسية؟ فهمت، ما أجملك رسولا من الدول

الديموقراطية ! إنها لشجاعة منك أن تقودى طائرة بمفردك ! أين هبطت

يا سيدتى الطائرة التى جئت بها ؟

— أية طائرة ؟

— عجباً ! كيف جئت إذن ؟

— قلت لك أنا شهرزاد ، شهرزاد الأساطير . شهرزاد التى طالعت

خبرها ، ولا ريب ، وأنت صغير . وأنا بالطبع لا صلة لى بالديموقراطية

أو الفاشستية . لأنى كما تعلم أنتمى إلى زمان لا يعرف هاتين الكلمتين .

إنما أجبى إليك اليوم بصفى الشخصية . كما جئت من قديم إلى الملك

شهر يار ، فلبثت عنده ألف ليلة وليلة ، أقص عليه من ألوان القصص ما غير

نظره إلى الحياة .

فقاطعها هتلر قائلاً ، وهو ينظر إلى خريطة الخريبة :

— ليس لدى وقت للاصغاء إلى القصص .

— هذا من سوء الحظ .

قالتها شهرزاد بنظرة لم تصمد لها عيناه فأطرق قائلاً :

— ربما كان هذا من سوء حظى حقاً ، فأنت امرأة جديرة أن يجلس

إليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة . ولكنى . . مشغول كما ترين .

ولا أحسبني أملك الاصغاء إليك أكثر من ليلة . إن العصور قد تغيرت ،

وإن مصائر الشعوب تتقرر أحياناً فى جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو مقصورة

قطار . أطرقى يا سيدتى الموضوع من بابه . . وأوجزى !

لم تياس شهرزاد من هذه اللهجة الجافة . وقالت مترققة :
— إطمئن ! . . إني لا أجلس إلى أحد رغما عن إرادته ، وإني لمقدرة
قيمة وقتك الثمين الذي تنفقه في . . في . . في هدف لا أقرك عليه . وقد
أكون مخطئة . وقد تكون أنت المخطئ . . ثق اني غير مقيدة برأى . .
غير متعصبة لمبدأ . . إني حرة حتى الآن مثل هذا الهواء وقد جئتك لأفنعك
بما أرى ، أو لتقنعني بما ترى . . فليكن بيننا الساعة صراع هادئ بين روح
المبادئ . . هل قبلت ؟

— قبلت .

قالها هتلر مبتسما وقد طمع في إقناع شهر زاد ، وأمل في أن يربحها هو
إلى جانبه ، ومن يدري ؟ لعله يستطيع أيضاً بعد ذلك أن يلحقها بوزارة
دعايته تحت إدارة الهر جوبلز . ليس بينه إذن وبين تحقيق هذا الأمل
سوى أن يقنع شهرزاد بآرائه . هنا رفع رأسه مستبشراً . ومر بيده على
خصلة شعره المتهدلة على جبينه كأنها جناح غراب وقال :
— سوف أقنعك بمبادئى .

— بغير عنف ؟

— بغير عنف .

— إنه ربح لا يستهان به أن تسمح بحرية الرأي والكلام والمناقشة !!
ولو إلى أجل قصير ! .

قالتها شهر زاد بابتسامة ذات مغزى . فأدرك هتلر لساعته أنه يكاد يقع

في فخ هذه الشرقية الجميلة . فليس هو الذي قد يكسبها ويجذبها إلى النازية .
ولكن الخوف أن تجذبه هي بغير أن يشعر إلى روح الديمقراطية . فتجهم
وجهه ، وعادت إليه من الفور طبيعة الجبروت ، فضرب المائدة بقبضته وصاح :
— كلا . لست أسمح هنا على الإطلاق بحرية الرأي أو روح
الديموقراطية ، وأرجو منك أن تكفي عن ذكر هذه الألفاظ إذا أردت أن تتفاهم !
فابتسمت شهر زاد وقالت متلطفة :

— وكيف تتفاهم بغير حرية التفاهم ؟ ما ذا تخشى مني وأنا أحادثك
على انفراد . والأبواب مغلقة ، ولا يسمع حديثنا أحد من شعبك . إذا لم
تطلق لي الحرية الساعة في محادثتك ، فمعنى هذا أنك تخشى أن أقنعك ؟
— كلا لست أخشى شيئاً ، تحدثني بكل ما تريد .

قالها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليتأكد من أن الحيطان ليس لها آذان .
واعتدلت شهر زاد في جاستها وقالت :

— إنني لا أحب العنف في الإقناع ، لا لأنني ديموقراطية النزعة ، فأنا
كما قلت لك لست أنضوي تحت حزب من الأحزاب ، ولكن تلك طبيعتي
منذ القدم ، إنك ولا شك تعرف قصتي مع شهر يار ، هل تذكر أنني لجأت
إلى العنف في إقناعه ؟

— أشهد أنك كنت بارعة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول إنك
كنت امرأة خطيرة ، لقد كنت أنت — ولا تؤاخذيني — الخليفة دون
غيرك بجمام الدم ، فان المرأة التي تستطيع أن تحول ملها عن سياسته ، وأن

تغير نظام حكمه في دولته ولو إلى الأصلح ، لهى على كل حال امرأة نائرة
على النظم ...

- إني لم أكن نائرة ، ولم أتدخل يوماً في سياسة شهريار ، ولم أنصحه
يوماً بإبرام أمراً أو الإقلاع عن فعل ، إنما دخلت حياته كبصيص النور الضئيل
المتسلل من خصاص الأبواب ، فاذا هو يرى ما لم يكن يرى ، وإذا هو
يصلح نفسه بنفسه ، ويتحول من حال إلى حال ، ومن سياسة إلى سياسة
من تلقاء ذاته ...

ففكر هتلر لحظة ثم قال :

- ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب ؟ إن شهريار كان يدخل كل
ليلة بعذراء يقتلها في الصباح حتى كادت تنقرض من بلاده العذارى ، فلا بد
أن الشعب ضجّ وغضب وتهامس وتآمر .. اعترفى . ألم تكونى موفدة
من قبل الجماهير ؟
- كلا .

- من يدري . لو كان لشهريار (جستابو) في ذلك الحين لتدارك
الخطر قبل وقوعه .

- الحمد لله إذ لم يكن لديه ذلك ... لو أن هذا حدث لما كان ..
- لما كان اسم شهر زاد ظهر في سماء التاريخ . ولما عرفت الأجيال
غير اسم شهريار وحده !

- دعنا من التاريخ . إنما الذى يجب أن تحفل به هو الانقلاب الطيب

الذى حدث لذلك الملك . إنه ولا شك قد رضى عن نفسه كل الرضا يوم
رأى الأشياء كما ينبغي أن ترى ..

سكنت شهرزاد وحدثت الفوهرر بنظرة طويلة . . . فحفض بصره قليلا
وأطرق ، ثم قال :

— إن لك يا شهرزاد أسلوباً عجيباً فى الكلام . إنك تريد أن تلقى
فى روعى أن هنالك أشياء عظيمة ترينها أنت ولا أراها أنا . . . وتحاولين
أن تدخلين فى نفسى الشك فى مبادئى . . . ولكن فإني أضع العقل
دائماً فى المحل الثانى ، والفكر فى المقام الثالث . أما المكان الأول عندي فهو
للإيمان . . . إني أو من وأنا مغمض العينين موحد الأذنين مغلق العقل . أو من
بمبادئى وحدها ، أو من وأو من ثم أو من . تكلمى بعد ذلك بما شئت . . .
فابتسمت شهرزاد ثم قالت فى دهاء :

— من قال لك إني أريد أن أهز إيمانك بمبادئك . إني جئت لأقنعك
أو لتتبعنى . وقد أفضل أنا معك ، وقد تفشل أنت معى . إني تواقفة إلى
الحرية ، حرية البشر أجمعين ، ولقد ذهبت إلى شهربار عند ما رأيت
حرية الشعب وبنات الشعب فى خطر . مبدئى هو الحرية لكل إنسان
ولا استعباد لأى إنسان . فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه ، سواء كان
أنت أو خصومك ، هذا قولى فأغض عينيك عنه . صم أذنيك إذا شئت
وأغلق فكرك ، ولكنى أنا فاتحة عيني وأذنى لا تلقى عنك ما تقول ،
وأزن ما تدلى به ، وأقبل الطيب من حديثك إذا وجد . ولا أكره أن

أقتنع بمبادئك إذا كانت نافعة للناس . فإن المكان الأول عندي دائماً هو
للفكر الحر ، والافتناع المطلق ، ثم الإيمان بعد ذلك ، تكلم فأنا
مصغية إليك . .

واتكأت شهرزاد بساعدها على طرف المقعد ، وغرقت فيه ، ورنت إلى
هتلر بعينها الصافيتين العميقتين فاختلج قلبه قليلا . ولكنه تماسك وقال :
— اعلمى أولا انى ذو قلب . حذار أن تقارنى بينى وبين شهر يارك .
إنه كان يسفك دماء العذارى ، لأنه لم يكن يعرف الحب . . أما أنا فقد
أذنت بحمام الدم لأنى أحب . . .

فقلت شهرزاد فى سخرية غير ملحوظة :

— امرأة ؟

فأجابها هتلر فى لهجة مثل لهجتها :

— إنى لست همجياً حتى أقدم مثل هذا القربان لامرأة !

— إنك حقاً رقيق الشعور !

— ما من امرأة عندى جديرة أن أهرق من أجلها قطرة من الدم .

لقد قلت لك إنى ذو قلب . وأى قلب ! إنه أرحب من أن يحوى امرأة . . .

إنه يحوى ألمانيا . . .

وصمت . فابتسمت شهرزاد وقالت فى هدوء :

— كنت أحسبه أرحب من ذلك . وإنه يحوى شيئاً أعظم من ألمانيا .

— ماذا ؟

— الإنسانية .

لفظتها شهر زاد في همسة عميقة . فوجهم هتار لحظة ثم قال :

— ماذا تعنين ؟

— أعنى أنك لو أحبيت الجنس البشرى كله ، لا الجنس الآرى وحده .. لكنت أعظم ألف مرة مما أنت الآن ، ومما تريد أن تكون . اصغ إلى مليا . لماذا لم تفكر في هذا المجد ؟ يدهشنى حقاً أن مثلك لم تخطر له هذه الفكرة ! ان حياتك معجزة لا ريب فيها ، فلماذا لم تستخدم هذه المعجزة لغاية أعظم وغرض أسمى ؟ ! لماذا لم توجه قوتك وثورتك للارتفاع بالإنسانية كلها ... فيسطر التاريخ لك صفحة لا يسطر مثلها لغير الرسل والأنبياء ..؟ إن الصفحة التي يعدها التاريخ لأعمالك اليوم ليست بذى شأن عظيم ، وقد كتب مثلها لكثيرين من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم معتمدين على القوة العسكرية .. ففرحوا بأكاليل النصر الحربى الذن زان جباههم ، ولم يفتنوا إلى انها أكاليل من الزهر الذى يذبل بعد حين . ولقد ذبلت فعلا ، وهوت ، وذرتها الرياح .. كل تلك الفتوح التي تفاخر بها أولئك القواد العسكريون ، ذلك أن لاشيء يثبت فى الأرض وينبت الثمار الصالحة الخالدة غير البذرة الطيبة التي يلقها فى نفوس البشر رجل يحب الإنسانية كافة . هذا هو المجد الذى ليس بعده مجد لإنسان !

— إنك امرأة . ولا يدهشنى قط من امرأة أن تبخس قدر النصر

الحربى !

— النصر الحقيقي هو لذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية ولو خطوة .
ويسعدنا ولو لحظة .. إن كلمة نبي ، أو ترنيمة شاعر ، أو تغريدة موسيقى ،
لأبقى على الدهر من صيحات الظفر وطبول النصر فى أكبر معركة حربية !
— عجباً !

— فيم العجب ؟ إن ذلك الذى يستند إلى قوة الله ، وهو النبي والرسول .
وذلك الذى يستند إلى قوة الفكر وهو العالم والفنان ، لأبقى وأخذ من ذلك
الذى يستند إلى قوة الجيش !!

شرد هتلر بخياله لحظة . وقال كالمخاطب نفسه :

— واأسفاه ! . . لطالما تقت إلى أن أكون نبياً !

— من أجل ذلك هاجمت الله والكنيسة ؟ !

— ولطالما تقت إلى العلم والفن !

— ولهذا نفيت العلماء والفنانين ؟ !

— عبقرية بلادى هى عبقرية عسكرية قبل كل شىء . . لم أفطن
إلى ذلك يوم قامت فى نفسى تلك القوى الجائحة تدفعنى أن أعمل شيئاً
للتاريخ . . لا تنكرى يا شهرزاد أن المعجزة تتخذ لون الأرض التى تظهر
عليها ، وأن العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التى ينبت فيها ! . .
لا تحسبى عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لبراز نبي من أنبياء الشرق !
— هذا صحيح ، ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته وأمته
وعصره ، لينشر تعاليمه التى تنفع الإنسانية كافة ، هكذا فعل المسيح ومحمد ؛

لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ، ليبذر فيهما المثل الأعلى
الإنساني .. وقد اضطهدا وعذبا في سبيل ذلك ، وقد انتصرا آخر الأمر ذلك
الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان .. ثق أنى لا أخدعك . إن
الخلود هو لمن يعمل لخير الإنسانية كلها ، ورفعة الجنس البشرى كله ..
لهذا كانت غلظتك الكبرى أنك أحبيت جنساً واحداً ، وكرهت بقية
الأجناس ! وعملت لرفعة شعب واحد ليستعبد بقية الشعوب !

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام « المباح » — المباح مؤقتاً
ياذن خاص من هتلر — وسكت « الفوهرر » ولا يدري أحد أكان سكوته
لاقتناعه بحديث شهرزاد ، أم للتفكير في طريقة للتخلص من هذه المرأة
الخطرة .؟؟ .

حمارى وموسولينى

قال لى حمارى ، وهو يحدق معى فى أعمدة الصحف يوم روت خبر سجن
« موسولينى » فى قلعة جزيرة « بونزا » قبل أن يهرب منها :

— ترى كيف تتصوره وهو فى سجنه ؟ !
فشرد ذهنى لحظة ، ثم قلت كالمخاطب لنفسى ، وكأنى أبصر
شريطاً متحركاً :

— أتصوره جالساً « منتفخاً » وقد دخل عليه ضابط من جنود
الكاراينسيرى القائمى بحراسته . فدار بينهما الحديث التالى :

الحارس : هل طلبتنى يا سيدى ؟

موسولينى : أردت أن ألفت نظرك إلى أن الطعام هنا ردىء .

الحارس : لقد نسوا يا سيدى من غير شك أن يرسلوا إلى هذه الجزيرة
طهاتك البارعين فى قصر روما الفاخر ! . .

موسولينى : لقد نبهتكم قبل الآن أن تكف عن مخاطبتى بكلمة
« سيدى » . إنى أصر على مناداتى بلقب « الدوتشى » !

الحارس : ليس لدينا أوامر بذلك يا سيدى .

موسولينى : لديكم فقط أوامر بقتلى إذا حاولت الهرب ؟ !

الحارس : هو ذاك يا سيدى .

موسولبنى : لو كنت قرأت تاريخ « نابليون » لعلمت أنه كان يصر هو
الآخر على أن يخاطب وهو سجين فى جزيرة بلقب
« الإمبراطور » ..

الحارس : وهل أجابه حارسه إلى ما طلب ؟

موسولبنى : كل حارس ذو مروءة وذوق لا يرفض ذلك .

الحارس : أنا أيضاً لا أرفض أن أكون حارساً ذا مروءة وذوق ..
فلأمنحك إذن هذا اللقب .. فى هذه الحجرة المغلقة .. من
قلعة نائية فى جزيرة مقفرة .. أتتنازل وتتقبل منى هذا اللقب
يا سيدى « الدوتشى » ؟ !

موسولبنى : ولماذا هذه الابتسامة على فمك ؟ ..

الحارس : تلك ابتسامة لا أظن من المروءة والذوق أن أطلعك
على معناها ! ..

موسولبنى : آه .. حقاً .. حقاً هل لى أن ألقى عليك سؤالاً ؟ ..

الحارس : إبنى فى خدمتك .

موسولبنى : صارحنى بالحقيقة . هل أنت وحدك الذى يسخر منى
الآن ؟ ! ..

الحارس : أظن أنى لست وحدى .

موسولبنى : من غيرك ؟ ..

الحارس : كثيرون .
موسوليني : أكثر من عشرة أشخاص ؟ ..
الحارس : أكثر من عشرة ملايين .
موسوليني : عجباً ! .. من أى دولة ؟ ..
الحارس : من شعبك نفسه .
موسوليني : الأتراك مبالغاً فى التقدير قليلاً ؟
الحارس : من غير شك انى مبالغ فى انقاص العدد ؛ فإن أولئك الذين
سمعوا خطبتك من الايطاليين وحدثهم يبلغ عددهم أكثر من
ثلاثين مليوناً ..
موسوليني : أى خطبة ؟ ..
الحارس : خطبتك الرائعة فى ذلك الموقف الرائع وأنت على ظهر مدفع
ضخم تصيح قائلاً : « ثمانية ملايين حربة تنتظر إشارتى
بالمهجوم .. البحر الأبيض بحرنا .. مارنسترام ..
مارنسترام » ! ..
موسوليني : واأسفاه ! ..
الحارس : أليس لهذه الملايين الآن بعض الحق فى ابتسامة صغيرة ؟ ! ..
موسوليني : « مارنسترام » ! ..
الحارس : نعم .. ها هوذا « مارنسترام » .. بحرنا .. بحرك .. مد
إليه يديك من خلال قضبان سجنك الصغير ..

موسوليني : لقد أردت حقاً أن أمنحك هذا البحر بهاتين اليدين فوضعت
فيها الأغلال !!

الحارس : من سوء حظنا أننا فعلنا ذلك متأخرين !. لقد تبين لنا بعد
فوات الأوان أنك أعطيتنا حقيقة بجرأ ، ولكنه بحر من
الدماء ! ..

موسوليني : هذا قولكم أتم يا أعدائي ، ولكن الشعب الإيطالي كله
يهتف الآن ..

الحارس : يهتف الآن بسقوطك في كل مكان ..
موسوليني : أنت كاذب ..

الحارس : لقد سألتني الصراحة ، ولكنك لم تزل تبغضها وتخشأها .
إن أذنك التي تعودت الإصغاء إلى رياء الخائفين وزلفى
الطامعين وتمويه الخدوعين مازال يذعرها رنين الصدق
والحقيقة ..

موسوليني : أهذا معقول أن يهتف الشعب الإيطالي بسقوطي ؟ !
الحارس : المعقول هو أن يفعل ذلك الآن ..

موسوليني : كيف يستطيع ذلك ..

الحارس : الأمر بسيط : ما دامت يدك القابضة قد أقصيت عن غطاء
الإناء .. فإن البخار المكتوم يستطيع الانطلاق حرأ في
الفضاء ! ..

موسوليني : أو ينسى الشعب ما صنعت له ؟ . .
الحارس : إذا أعطيت شعبك كل شيء وسلبته حرية فإنك لم تعطه
شيئاً . .

موسوليني : أينسى صوتي الذي هز مشاعره ؟ . .
الحارس : كلا . هذا لا ينساه . . إن صوتك حقاً كان مؤثراً . وخطبك
كانت رائعة . . وحرركاتك ووقفاتك كانت بارعة . . وهل
ينسى الشعب صوت « كاروزو » أو تمثيل « زا كوني » ؟ !
موسوليني : إني لم أكن ممثلاً يا هذا . .

الحارس : إنك كنت ممثلاً أتمن دوره حتى نسي نفسه وأنسى الجماهير
أنفسها ! . . إنك أعظم ممثل أنجيتته عبقرية إيطاليا الفنية . .
مأساة حياتك وحياة إيطاليا الحاضرة : هي أنك لم تتخير
الظهور من بادىء الأمر على مسرح التمثيل ، وآثرت اللعب
على مسرح السياسة . لقد اتبعت بغير ترك وطبيعتك عين
الطرائق الفنية المسرحية : فبدأت بدراسة « شخصية » من
الشخصيات . كانت هي ، لسوء الحظ أو لسوء الاختيار
شخصية « نابليون » ! لست أدري لماذا تجذب هذه الشخصية
دائماً هوة التمثيل في كل ملعب ! درستها أنت فيمن درسها . .
وتشبعت بها حتى جاوزت التمثيل إلى التأليف . فوضعت
قصتك التمثيلية عن : « نابليون والمائة يوم » . . وإني

لأتساءل عما منعك من تقمص « نابليون » بنفسك في روايتك
على المسرح الخشبي . لعل المانع هو اشتغالك فعلا بتمثيلها
المتقن على المسرح الآخر .. كل هذا كان يقبل منك لو أنك
مسحت الأصباغ عن وجهك آخر النهار ، وخلعت الأثواب
وأطفأت الأنوار ، وصارحت جمهورك بقولك له : « إن هذا
كان تمثيلاً ! .. » لأن شخصيات التاريخ لا تتكرر ، وأن
أطباع الطغاة تروى كالأساطير ، وأن الزمن قد تغير ، وأن
الشعوب اليوم لا ينبغي لها أن تجرى وراء أوهام السيطرة
الكاذبة والتسلط الزائف .. بل تسعى إلى حريتها ورفاهيتها
في جو من الوثام والتعاون مع جيرانها من بقية الأمم
والأجناس .. لو أنك نبذت من أول الأمر فكرة التقليد
والتمثيل ، وشيدت عملك على أساس جديد من روح العصر
وفلسفة الإنسانية النافعة للبشر .. لكنت ارتفعت في نظر
التاريخ عن مجرد ممثل للدوار القديمة إلى مصلح إنساني
للعالم الحديث .. .

موسوليني : يدهشني أن تتكلم هكذا أيها الضابط ؟ أرى أن اختيارهم لك
حارساً لي لم يأت عفواً !

الحارس : أرجو على كل حال أن يكون في حديثي بعض الفائدة .

موسوليني : أي فائدة ؟ .. ما دامت هاهنا نهايتي !

الحارس : هب أنك عدت إلى الحياة . . إلى حياة العمل من جديد .
ماذا تصنع ؟ . .

موسوليني : أصنع كل ما تريد . . ولكن كيف الخروج من هنا ؟ .

الحارس : حقاً . . الخروج من هنا هو المستحيل بعينه . . فهذه الجزيرة
الصغيرة محروسة كما ترى بالسفن الحربية من كل الجهات . .

موسوليني : إنى مع ذلك لم أفقد الأمل بعد . . إن « نابليون » سجن هو
الآخر أول مرة في جزيرة إلبا وهي محروسة واستطاع مع ذلك
الهرب . . لا بد من هربي أنا أيضاً هذه المرة . . كما هرب .

الحارس : يا للأسف ! . . إنك أيها الممثل لا تستطيع الخروج قيد شعرة
عن نطاق « الدور » الذى تقلده وتحاكيه . . .

موسوليني : ولكنى لم أنس ما قلت لى . وسأعمل ما تريد . . .

الحارس : لن تستطيع ، ليس فى مقدورك أنت أن تخلق شخصية مستقلة
عن شخصيات التاريخ . لا بد لمثلك من نموذج يسير عليه .
وثوب بطولة زائف يرتديه . أنت ممثل وكفى ! . .

موسوليني : سوف ترى ما أصنع . . إذا كتبت لى العودة إلى العمل . . .

الحارس : ماذا أنت صانع ؟ . . لا شىء غير الاستمرار فى لعب دورك
حتى نزول الستار ! . .

موسوليني : أين ؟

الحارس : صدقت فى هذا . . أين ؟ لا بد لك من مسرح . فإيطاليا اليوم

لا تصلح للعبك المعروف . إن الجماهير سوف تستقبلك
بالصغير المزرى أو الإهمال المخجل ولكن لك شريكا
ما زال يلعب على مسرحه . . . من يدري . . . ربما رضى
أن يعطيك دوراً صغيراً إلى جانبه . . .

[أصوات صياح في الخارج وطلقات نارية]

موسوليني : ما هذا ؟ .. ما هذا ؟ ..

الحارس : مكانك ولا تتحرك ! ..

جندي : (يدخل مسرعاً) هبط النازي بالمظلات ! ..

[ضابط نازي يقتحم الحجرة بمسدسه]

الحارس : لا داعي لإطلاق النار .

النازي : (لموسوليني) أيها الدوتشي ! ..

موسوليني : (يبكي وينتحب من الفرح) إني .. إني كنت شاعراً بذلك ...

النازي : لقد أمرني الفوهرر أن أضعك تحت حمايتي ! .. .

موسوليني : إني .. إني كنت واثقاً أن الفوهرر لن ينساني .. .

الجندي : (همساً) إنه يهرب ولم نرمه بالرصاص ؟

الحارس : (للجندي وهو يتأمل منظر موسوليني) أو يريدون منا أن

نقتل هذا المخلوق المسكين ! ..

الجندي : والأوامر التي لدينا ؟ ! .

الحارس : سيدركون فيما بعد أن هذا الرجل لا ينبغي أن يموت موتة جندي ،

بل مיתה مهرج منسى . . . فقد الهتاف والتصفيق والدوى ...

حمارى ومؤتمر الصلح

قال لى حمارى مرة : « صف لى مؤتمر الصلح لهذه الحرب ؟ »
فقلت له ، وقد رافنى سؤاله ، وودت لو استطعت الجواب : كيف أصفه ؟
إنه لم ينعقد بعد بالطبع هذا المؤتمر ، ولا يدري آدمى متى ينعقد . إذا شئت ،
فلنلجأ إلى عين الخيال ، نرى بها ما يجرى فيه وما يفضى إليه . وعين الخيال
هذه كعين الماء فى الصحراء تستمد مادتها من أغوار الرمال . . رمال الزمن
والماضى . . لذلك أتصور أن يعقد مؤتمر الصلح القادم فى « فرساي » مرة
أخرى ، وفى قاعة « المرايا » الشهيرة بالذات . ولكن المبادئ التى ستطرح
كأساس للسلام سوف تكون جديدة الوجه . والرجال المجتمعون حول مائدة
المفاوضة سوف ينتخبون طبقاً لفكرة خاصة . وفى الحق إنه عقب انتهاء
الحرب سيشتد الرأى العام فى كافة الشعوب المحاربة حول هذا السؤال :
من الذى يصنع السلام ؟ أهم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاءوا بالنصر ؟
ألا يخشى أن يكون العمل المنهك والجهد المضنى الذى قام به هؤلاء الأبطال
يجعلهم فى حاجة أن ينالوا قسطهم من الراحة ، فيتولى عبء الجهاد الجديد
رجال جدد ممن كانوا أثناء الحرب يدرسون مشاكل الغد ، ويعدون العدة
فى صمت لبناء صرح السلام العالمى ؟ ثم ألا يخشى من الرجال المنتصرين إذا

تسلموا قيادة الصلح أن تنسيهم حرارة الظفر أنفسهم ، فيحسبون أن واجبههم على مائدة السلم أن يحرزوا لأوطانهم انتصارات أخرى . وبهذا يضع معنى الفكرة العظمى التي من أجلها بذلت الأرواح وسفكت الدماء وهي : التعاون الدولي على أساس المساواة والإخاء بين الأمم جمعاء ؟ ! كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفد الديمقراطيات المنتصرة إلى المؤتمر رجالا مشبعين بهذه الفكرة العليا . فمثلا قد توفد حكومة تشرشل رجلا مثل « بيفرديج » وحكومة روزفلت رجلا مثل « ديوى » وحكومة ستالين رجلا مثل « لتفينوف » وحكومة برلين رجلا مثل « أوتو شتراسر » الخ . . . وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح . ولما كانت مصر مدعوة بطبيعة الحال إلى تبوء مركزها من هذه المائدة ، فقد حق لك يا حمارى أن تسأل عن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمة الخطيرة . . .

اسمح لخيالى أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة ، فيتصور أن مندوب مصر هو : العبد الفقير « كاتب هذه السطور » . ولا تسأل عن السبب ، بل تعال معى نشاهد ما الذى سيحدث : لا شك أن خبر تعيينى سيقابل كعادتنا فى مصر بالهجوم العنيف من الحساد . فيمعنون فى تجريدى لا من الصفات المطلوبة فى عضو المؤتمر وحدها ، بل من كافة الصفات الآدمية التى يتمتع بها كل من خلقه الله من ماء و تراب . . .

فيرد على ذلك الأنصار بما يعرفونه عنى من الصفات الحسنة مبالغين

فيها . . . ويأتي يوم السفر فتحشد الجموع في مطار ألماته حيث تقرر أن
أذهب طائراً إلى فرساي . ويعاود هتاف الجماهير مذكراً إياي بمطالب البلاد .
فالوح إليهم بالمحافظة التي تحوى الوثائق الرسمية والمذكرات التفسيرية التي
عليها تقوم المفاوضات ، ثم تتحرك بي الطائرة مرتفعة في الجو وقد تبعها
بعض الطائرات الخاصة مزينة بالأعلام الخضراء تودعني حتى شاطئ البحر
ثم حطت الطائرات في الدخيلة . وعبرت طائرتي وحدها إلى أوروبا وأنا
داخلها أفكر في سر اختياري للمؤتمر . . . وماذا أنا قائل فيه . . . وأنا لم
أدرس بعد أية وثيقة من الوثائق التي بالمحافظة . فقد ضاع وقتي في مصر
بين مطالعة شتائم الحساد في النهار وأقوال الأنصار في المساء . . .
لكن لماذا لا أنتهز فرصة هذه الخلوة في الطائرة وأطلع هذه الأوراق
الهامة ؟ ومددت يدي نحوها ولكن ذهني شرذ . . . وتلك ولا شك صفة
فات حسادي أن يذكرها ضمن ما ذكره عنى من صفات . . . شرذ ذهني
في أمر وصولي إلى فرنسا . . . وأين يكون مقامي ؟ أنى فندق في فرساي مع
بقية أعضاء مؤتمر الصلح . . . ولماذا لا أنزل كما يحلولى في مونمارتر مثلاً . . .
بذلك الفندق الذى نزلته منذ نحو عشرين عاماً ولى فيه ذكريات ؟ وجعلت
أستعرض في رأسي ذكرياتي يوم كنت أقطن أمام مرقص « الكوليزيوم »
المشهور . وأمضى ليلي أكتب شعراً فرنسياً منشوراً في الحانة المجاورة للمهى
« الطاحونة الحمراء » وأنا أحتسى بيعة ستراسبورج وآكل « الكرنب
بالسجق » . . . وأرملق بنات الهوى الجائعات الجالسات على الموائد حولي

ينتظرن الدعوات وأنا أقول لهن : « يا عرائس الشعر أبعدن عنى ساعة الأكل ، فما فى جيبى غير فرنكات معدودات ثمن طبقى وحق جمالكن ! » فى اليوم التالى لوصول طائرتى إلى فرنسا ، افتتحت أول جلسة من جلسات مؤتمر السلام فى قصر فرساي ، بحديثه الخضراء ذات النافورات العجيبة ينبثق منها الماء فى أشكال وألوان ، كأنه ماسة ملقاة فوق العشب تشع بالأضواء . . واجتمع الأعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى مستديرة فى قاعة « المرايا » . . وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه وجعل يخرج منها الأوراق . واتخذت مكاني بالطبع بين الجالسين . . وأردت أن أصنع مثل ما . . . وإذا أنا لدهشتى ومصيبتى وطامتى أتذكر أنى نسيت محفظة وثائقى بالطائرة . . والنسيان قاتله الله صفة أخرى من صفاتى الممتازة . . ما العمل الآن وقد ضيعت أول ما ضيعت المحفظة التى فيها مطالب بلادى ! . .

لم تدم ورطتى طويلا . فقد عزيت نفسى بقولى إن المؤتمر فى يومه الأول لن يبحث على أى حال فى المسألة المصرية . . ومن هنا إلى أن يجيء دورها يكون الله تعالى قد فتح علىّ بالحل الموفق السعيد . .

وغرقت فى مقعدى الوثير مطمئناً ، أستمع إلى المناقشات التمهيدية الأولى بين « بيفردج » و « ديوى » و « لتفينوف » و « شانج كاي شيك » وكلما أوغلوا فى المناقشة فترت قوتى على الإصغاء وتهدأ ذهنى كالعادة إلى الانصراف والانطلاق فى أجواء أخرى . وبالفعل لم يمض قليل حتى ألفت

نفسى منهم كما فى حصر عدد المرايا التى فى القاعة وملاحظة حركات مثل الصين وهى تنعكس على كل مرآة . . ثم طفقت أقول فى نفسى : ليس أنسب من هذه القاعة لاجتماع نسوى . . فكثرة المرايا تسر المرأة وتملؤها زهواً وخيلاء . لكن لماذا تجتمع الدول هنا أيضاً فى قاعة المرايا ؟ أخشى أن يكون هذا سبباً من أسباب الزهو والخيلاء الذى كاد يذهب برووس بعض ممثلى معاهدة « فرساي » السابقة !

مضيت فى هذه الخواطر دون أن ألتفت إلى ما يجرى حولى . وإذا أنا أتنبه على صوت المجتمعين يقررون أن يبدأ المؤتمر بسماع رأى الأمم الصغيرة واتجهت العيون نحوى . وأعطى الكلام لمدوب مصر . . يا للكارثة ! جاءك الموت يا تارك . . (المحفظة) ! وأصبحت فى موقف لا يحسدنى عليه حساد ولا عدال . . أين محفظتى أين ورقى ؟ ماذا أصنع أيها الناس وماذا أقول ؟ . . ولكنى وقفت على كل حال رغماً عنى وقد مدنى اليأس والخرج باتقاد ذهن ليس من شيمتى فانطلق لسانى يقول :

— أيها السادة الأجلاء . . ليس هنا اليوم أم صغيرة ولا أم كبيرة إنما نحن أمة واحدة وعالم واحد يجتمع حول هذه المائدة كما يجتمع أفراد الأسرة الواحدة على مائدة العشاء . عالم واحد وحرىات أربع . أليس هذا هو الدستور الجديد لديانانا الجديدة كما جئنا لنشيد بناءها ؟ ولا ريب أننا جميعاً متفقون على تلك المبادئ التى أذاعتها الديموقراطيات قبيل انتهاء الحرب وجعلتها بمثابة الأركان الأربعة لعالمنا الجديد .

إنها كما تعلمون : حرية القول والرأى . حرية العبادة . والتحرر من العوز والفقير . والتحرر من الظلم والاستعباد . إذا تم تحقيق هذه الحريات لكل أمة من الأمم ، فقد استغنت بها عن أى مطلب خاص تتقدم به إلى هذا المؤتمر الموقر . إلا ما تعلق بالتفاصيل ووسائل التنفيذ فهذا بالضرورة يحتاج إلى البحوث الخاصة التى تعرض على هذه المائدة . على أنى حتى فى هذه المباحث والطلبات والتفصيلات التى تتعلق بكل دولة على انفراد ، أرى رأياً واقترح اقتراحاً أرجو أن يحوز موافقة المؤتمر . . ذلك الاقتراح هو أن لا يتولى الدفاع عن مطالب أمة مندوب هذه الأمة ، بل مندوب أمة أخرى . . وذلك منعاً من طغيان عاطفة القومية والوطنية على الشعور بالمصلحة الإنسانية والعالمية . فمثلاً يتولى الدفاع عن مصالح أمريكا مندوب الصين وعلى العكس . وتقوم تركيا بالدفاع عن مطالب روسيا . وفرنسا عن ألمانيا . . ومصر عن إنجلترا . . وهكذا . . .

وسكت لحظة أمام نظرات مستر « بيفرديج » وهو يفحصنى بعينيه متعجباً . . ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحسن ، فارتسم التفاؤل على شفتيه فى صورة ابتسامة رضا ، شجعتنى وشجعت جميع الأعضاء فهتفوا معاً موافقين على هذا الاقتراح . . . ونهض « ديوى » فصاح « شانج كايشك » وقام « سراج أوغلو » فسلم على « ليتفينوف » ، وانحنى « شتراسر » يحيى « دييجول » . ودعانى المؤتمر إلى المضى فى الكلام فقلت :

— أرجو أن يكون مستر « بيفرديج » مطمئناً إلى وضع مصير بلاده

بين يدي ، كما أطمئن أنا إلى وضع مصير بلادى فى يده ، ولىسمح لى أن أوجه التفاته إلى مشاكلنا الاجتماعية التى تحتاج إلى علمه وخبرته وفطنته ، فرفع مستوى الفلاحين يتطلب مشروعاً ضخماً يماثل مشروع التأمين الاجتماعى بالنسبة إلى انجلترا . وتوطيد مركزنا الاقتصادى وزيادة الثروة الأهلية والمحافظة على مستواها سواء بإدخال وسائل إنتاج جديدة أو بتحسين الإنتاج الزراعى والصناعى القائم . . كل ذلك موكول إلى بحثك المستفيض وهمتك العالية ، أما مسائلنا الخارجية فإنها ستوضع ولا ريب على الأسس العامة التى تقوم عليها العلاقات الخارجية لكافة الدول ، فإنه تحت ضوء هذا المبدأ : «عالم واحد وحرىات أربع» سوف تحل كثير من المشاكل ، وان فى صيحة الديموقراطيات المدوية بأن « فى الإمكان القضاء على القوة كوسيلة للأعمال السياسية » إذا قوبلت ووجهت بقوة أخرى أعظم منها تقوم على دعائم اقتصادية وخلقية ، ويعززها بوليس مشترك يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة التى تمكنها من الاعتداء على أية دولة مجاورة لها فى أى مكان فى العالم . . الخ . هذه الصيحة ستمحو ولا شك كل الصعوبات التى وقفت فى سبيل الصداقة بين الشعوب القوية والضعيفة . هذا فيما يختص ببلادى وقد وضعته بين يديك . أما فيما يختص ببلادك فأمره سهل ، ولا شك أنك قد وضعت فيه البحوث والدراسات وملاآت مذكراتك ووثائقك مشروعات . ولىس لى إلا أن أمد يدي وأقول لك يا مستر « بيفردج » سلمنى محفظتك . . !

حمارى وحزبه

دار بينى وبين حمارى يوماً هذا الحوار :

الحمار : أريد أن ألقى عليك سؤالاً شخصياً ، باعتبارك اليوم من أرباب المعاشات . أتأذن لى ؟

الحكيم : العفو . تفضل ! ..

الحمار : ألم تفكر فى الانضمام إلى حزب من الأحزاب ؟

الحكيم : لماذا ؟ .. القهوة التى أجلس فيها الآن مريحة جداً وتعجبني للغاية .. ولا أريد بها بديلاً ..

الحمار : خطرت لى فكرة جديدة طريفة ..

الحكيم : خيراً ..

الحمار : ما رأيك لو ألفنا نحن حزباً ؟ ..

الحكيم : سياسياً ؟

الحمار : عاملاً .. إنك تعلن إلىّ فى كل مناسبة إعجابك بى وبفصيلتى من

الحمير .. لقوة مراسنا ، وطول صبرنا ، وشدة جلدنا على العمل ..

فما قولك لو شرعنا فى انتخاب نحو ثلاثين حماراً من الطراز

الأول ، نؤلف منها الحزب ؟

الحكيم : حزب من الحزب ؟

الحمار : ولم لا ؟

الحكيم : أو تظن أنك أحدثت جديداً في السياسة ؟

الحمار : على كل حال الجديد هو رئيس الحزب الذي يلون الأعضاء بلونه .

الحكيم : ومن ترشح للرياسة ؟

الحمار : أرشحك أنت بالطبع .

الحكيم : أتظن أنه سيوجد إنسجام بيني وبين الأعضاء ؟

الحمار : لا شك عندي في ذلك . إنك خير من ينسجم مع هؤلاء الأعضاء .

الحكيم : أهذا مدح لي أم ذم ؟ ! ما علينا . . أنا أتشرف بإسناد هذه

الرياسة إلى شخصي المتواضع ، ولكنني لا يسعني إلا الاعتذار . .

فالمسئولية جسيمة . وأنا أفضل أن أكون عضواً بسيطاً في

هذا الحزب . . من رأيي ترشيحك أنت للرياسة . .

الحمار : أنا . . لا أصلح .

الحكيم : لم لا ؟ الانسجام مفقود بينك وبين الحزب ؟

الحمار : بالضبط . .

الحكيم : وغير مفقود بيني وبين « حضراتهم » ؟ !

الحمار : بالضبط . لأن مسألة الرياسة — كما لا يخفى — دقيقة جداً .

تولد دائماً مشكلات وعقبات وخصومات . وإنك لتعلم أن كل

مشروع نافع لا يفسده غير التنافس على الرياسة . . وكل اتفاق

لا يقف في سبيله إلا الخلاف على الرياسة . . فاذا أردت نجاحاً

لمشروعنا هذا فليكن الرئيس من الخارج . .

الحكيم : فهمت . والمبادئ ؟

الحمار : ليس الآن وقت البحث فيها . . المهم هو تشكيل الحزب ،

وانتخاب الرئيس ، واختيار المكان المناسب أو النادي الملائم . .

الحكيم : عجباً . . حتى أنت يا ...

الحمار : أأست معي ؟

الحكيم : أبداً . . أبداً . . ما الذى صنعناه إذن ؟

الحمار : ماذا كنت تريد أن نصنع أكثر من ذلك ؟

الحكيم : أشخاص ومكان وناد . إني يا سيدى - كما تعلم - لا أعرف

لعب الطاولة ولا الشطرنج . ولست ساحر الحديث ولا ظريف

المجلس ولا أحب أن أكون من ذوى الجاه . كل ما عندى قلم

لا أرضى أن أسخره فى هدم الأشخاص لمجرد الهدم ، ولا أن

أستخدمه فى بناء أشخاص طمعاً فى الغنى . إنما هو خادم بالمجان

لأى فكرة كبيرة أذاع عنها . . تلك هى كل مهمتى . وكل مطلبى

والباقى لا وزن له عندى . . .

الحمار : ما هذا الكلام ؟ . . تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة . . ولا

تريد الهدم ولا الغنى ولا المال ولا الجاه ولا . الخ تريد أن نعلن

ذلك حتى يقولوا عنا إنه حقيقة حزب حمير ؟ !

الحكيم : واأسفاه! .. كنت أحسن الظن بآرائك ..
الحمار : آرائى كلها صائبة. ما من مرة أوحيت إليك برأى خاطيء. أنسيت
يوم جعلنا نحصى ما نشرت من أفكار فوجدنا أن كل آرائك
السليمة الحصيصة خرجت من رأسى أنا .. وكل آرائك السقيمة
السخيفة صدرت عن رأسك أنت ؟ ..

الحكيم : هس .. لئلا يسمعك أحد ..
الحمار : لا تخف . إنى أخفض صوتى . ولكن اعترف أن آرائى التى
أوحيت بها إليك ثبت صلاحها فى كل حين :
الحكيم : لا أذكر أنه ثبت صلاح أى رأى من آرائنا - أى آرائك -
اضرب لى مثلا واحداً ..

الحمار : ما أضعف ذا كرتك .. خذ مثلاً رأى الأخير الخاص بتعدد
الزوجات ..

الحكيم : « يا ساتر ! .. » ألم تركيف قامت قيامة النساء فى كل مكان
على هذا الرأى .. وقلن إنه لا يصدر حقاً إلا عن حمار ؟ !
الحمار : الحمد لله ! .. رأيت ؟ إن آرائى لها طابع خاص لا يمكن
أن يخفى ..

الحكيم : لهفى على ذلك الفيلسوف الانجليزى الذى قرأت خبره أخيراً
فى الصحف !

الحمار : حقاً .. ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه ؟ إنه أعلن أن عدد

النساء في إنجلترا يزيد مليونين على عدد الرجال .. ونادى هو
الآخر بضرورة التعدد .. وأبدى استعداداه هو بالذات للاقتراح
بست زوجات ؟!

الحكيم : الحق أن رأى هذا الإنجليزي أدهشنى .. وأعاد إلى نفسى بعض
الثقة فى حصافة رأيك ورجاحة عقلك ..

الحمار : من يدرى ؟ .. ربما كان لى ابن عم نشيط نرح إلى بلاد الإنجليز
هو الذى أوحى بهذا الرأى إلى ذلك الفيلسوف ؟!

الحكيم : لا أظن الحمير تستطيع أن تعيش فى جو إنجلترا ..

الحمار : وكيف إذن يفكر الفلاسفة هناك هذا التفكير السليم ؟!

الحكيم : لست أدرى .

الحمار : يسرنى على كل حال أن نكون متفقين فى الرأى ، أنا وهذا
الفيلسوف الإنجليزي ..

الحكيم : وأنا يدهشنى أنى لم أسمع حتى الآن أن نساء إنجلترا أقمن القيامة

على زميلك الفيلسوف هذا .. المطالب بست زوجات ؟!

الحمار : إنى لم أذهب إلى إنجلترا ولا أعرف عنها شيئاً . ولكن ربما كانت
النساء هناك غير مثقفات ..

الحكيم : غير مثقفات ؟ نساء إنجلترا .. وفيهن أعضاء فى البرلمان ؟!

الحمار : عجيباً .. إذن لماذا لم ينهضن على الأقل فى البرلمان صائحات ضد

هذا الرجل ؟!

الحكيم : أظن أن النساء هناك لا يصحن لأنهن يعملن ..

الحمار : أو تركن إذن زميلي الفيلسوف يقول ما يريد ..

الحكيم : طبعاً .. وهل كنت تنتظر أن يضعن في فمه اللجام .. كما يتمنى

نساؤنا أن يفعلن بك وبى ؟

الحمار : أريد أن أسألك سؤالاً محيراً ؟ بماذا تفسر سعة صدر المرأة

الانجليزية مثلاً وضيق صدر المرأة المصرية ؟ ما السر في أن نساء

انجلترا لم يغضبن عند ما قال ذلك الكاتب إنه يريد التزوج

بست زوجات ، وغضب نساؤنا عند ما قلنا بزواج أربع فقط ؟ ..

هل المصرية تقدس حقوق المرأة وتحرص على حريتها أكثر

من أختها الانجليزية ؟

الحكيم : سعة الصدر وضيقه .. ليست ظاهرة مقصورة على المرأة وحدها ..

ولكنها ظاهرة شاملة تلاحظ في حياة كل شعب تبعاً لدرجة

عراقته في الحرية والحضارة والقوة . فالشعوب الحرة القوية هي

في الغالب أوسع الشعوب صدرًا وعقلًا . إن مسألة الزى الأوربي

مثلاً أو لباس الرأس لم تصادف في اليابان أى صعوبة أو

إشكال .. وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة والوطنية

اليابانية العريقة لم نسمع يابانياً ذكر كلمة « القومية » أو

« الوطنية » وهو يرتدى الزى الأوربي ، لأنه لم يخطر قط بباله

وهو يلبس « القبعة » أنه سيخلع « قوميته » . أما الشعوب

الضعيفة فتتوهم دائماً أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتها ستخلع
منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو برداء . فهي تنفعل وترتعد
وترتاع لمجرد المظاهر والألفاظ والكلمات . . .

الحمار : لا بد لهذا من علاج . ما علاج ذلك ؟

الحكيم : حرية الكلام . . حتى يألف الناس الألفاظ . . ولا يرتاعوا
من الكلمات . . وحرية الفكر والعمل والتصرفات . . حتى
يعتاد كل فرد احترام رأى الآخر وعمله وتصرفه . دون أن يكون
مضطراً إلى اتباعه . الحرية هي المنبع الصافى لسعة الصدر
والعقل . . الحرية هي الطريق نحو القوة . . الحرية هي انتصار
الإنسان على نفسه ، وعلى كل سخافة إنسانية . الحرية هي
دواء كل شيء . . .

الحمار : إذن فمن واجبنا أن نتكلم .

الحكيم : دائماً . . حتى يسقط القلم من بين أصابعنا الميتة .

الحمار : لا تقل إذن إن آرائى دائماً خرقاء !

الحكيم : إن انخرق أو الهراء الذى يخرج من أفواهنا فيه أيضاً بعض النفع
للناس . إنه يجعلهم يتسمون سخرية منا على الأقل . وإذا
استطاعوا أن يسخروا فى ابتسامة جميلة لا يعلوها زبد الغضب ،
فقد ساروا خطوة نحو الحرية . . .

الحمار : كنت تريد لخرابنا مبادئها هو ذا مبدأ عظيم !

الحكيم : الحرية الاجتماعية ؟

الحمار : نعم . ما قولك ؟ ..

الحكيم : لا مانع عندي الآن من تأليف الحزب .. اجمع الحمار ! ..

الحمار : هنا صعوبة بدت لي الآن !

الحكيم : ما هي ؟ ..

الحمار : هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذي يعترف بأنه حمار ؟

الحكيم : إذن لم يأن الأوان لتأليف هذا الحزب

حمارى والذهب

رأيت حمارى ذات يوم مفكراً مهموماً .. فجلست بجواره صامتاً محترماً
ما هو فيه ... إلى أن أحس وجودى ... فرفع رأسه نحوى ... وجرى بيننا
هذا الحديث :

الحمار : وأخيراً ؟ ..

الحكيم : وأخيراً ماذا ؟ ..

الحمار : مستقبلى . ألم تفكر فى مستقبلى ؟

الحكيم : عجباً ! .. لأول مرة أسمع حماراً يتحدث فى مستقبله !

الحمار : ما وجه العجب ؟ ألسنت مخلوقاً حياً يعيش خاضعاً لقانون الزمن ؟

أليس لى ماضٍ وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات والكائنات ؟

لقد عشت معك حتى الآن عارياً .. لا سرج ذهب .. ولا

« رشمة » فضة .. ولا برزعة مرصعة .. ولا ..

الحكيم : شىء جميل ! .. أهذا ما يشغلك الآن ؟ !

الحمار : هذا ما يشغل اليوم كل إنسان . إن الناس كلها من حولنا تفكر

فى الذهب .. وتعيش للذهب .. وتتنفس بالذهب .. وأنا وأنت

قاعدان ننظر إلى القوم من عل متدثرين فى أسمال أفكارنا

وأطهار فلسفتنا ..

الحكيم : اسمع أيها الحمار .. فرغنا من آرائك السياسية .. ومن مبادئ
حزب الحمير الذى أشرت بتأليفه .. واليوم تريد أن تفتح لى
باب أطماع جديدة ؟ !

الحمار : انى أفتح لك باب أعمال .. وما دمت أنا الذى يفكر لك ..
الحكيم : فكر لى فى شىء نافع من فضلك !

الحمار : أنفع من الذهب ؟ يا للعجب ! .. هنالك لحظات أتساءل فيها
أ أنا الحمار أم ..

الحكيم : الزم أدبك . لقد بدأت أضيق بك ذرعاً .. وأشعر أننا أصبحنا
غير متفقين فى كثير من الأفكار والمشارب والميول ..

الحمار : بل أنا الذى ضقت وضجرت و « غلبت » !

الحكيم : فلنفتق إذن ! .. ما الذى يرغمننا على هذه الحياة المشتركة ؟ ..
وعلى هذه الصحبة التى لا أجنى منها غير سوء السمعة ! .. اذهب
إذا شئت ، وابحث لك عن صاحب من ذوى المال — وما أكثرهم
اليوم — يغطى عريك المزعوم بالذهب والفضة . وسنرى بعد
ذلك هل شعرت بالدفء حقاً وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين ؟ !

الحمار : وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عارى الظهر ؟ !

الحكيم : بالطبع . لو كان لك قلب يعرف حرارة الإيمان .

الحمار : يا لهذه الكلمات ! .. انك تكسونى بالكلمات .. وتغذونى
بالكلمات .. ولا أجد شيئاً عندك غير كلمات ..

الحكيم : ولن تجد عندي شيئاً غيرها .

الحمار : من سوء حظي !

الحكيم : حقاً .. ربما كان ذلك من سوء حظك لأنك حمار .

الحمار : الزم أدبك . يكفي أني تحملت عشرتك طول هذا الزمن ، وأنت

لا يتحملك أحد . ولكن آن الأوان أن أتركك لوحدتك ..

لتأكل وتشرب كما تشاء من أفكارك وكلماتك ..

الحكيم : اسمع .. اني لا أطيق أحداً يحقر الأفكار والكلمات ! .. إن

الكلمات هي التي شيدت العالم . ان محمداً لم ينشر الإسلام

بالذهب بل بالكلمات . وان عيسى لم ينشئ المسيحية بالمال

بل بالكلمات . الكلمات الصادقة والأفكار العالية والمبادئ

العظيمة هي وحدها التي قادت الإنسان في كل أطوار وجوده ..

وبنت الأمم والشعوب في كل أدوار تاريخها . ما من حركة

وطنية أو قومية أو إنسانية قامت أول أمرها على شيء غير

المبادئ والكلمات .. وعندما يظهر الذهب آخر الأمر ببريقه

ورنينه .. فاعلم أن أوان الانهيار قد آن .. وأن هذا البريق

سوف يذيب المبادئ بأشعته الساحرة .. وأن هذا الرنين

سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع الكلمات ..

الحمار : تريد من ذلك أن تقول إن الذهب عدو المبادئ ؟

الحكيم : بلا شك . لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ . مبدأ خطر طاع مثاله ..

ينسى الناس كل المبادئ الأخرى الحقيقية السامية النبيلة . .
أنظر إلى مجتمعنا اليوم ، وقل لي ما هو المبدأ الغالب المسيطر على
كل النفوس ؟ لقد قلتها أنت نفسك الساعة : إنه الذهب . لقد
تحكم حتى أصبح هو المقياس لقيم الرجال . ألا تسمع أن كل
رجل كفاء يتباهى بأن دخله من الشركات كذا ألف . . فإذا
طلب لواجب قومي وازن في الحال بين خسارته المالية هنا وربحه
المالي هناك . وجاراه المجتمع في حسابه المادي صائحا : « لامصلحة
لفلان في أداء هذا العمل لأنه سيخسر بعض موارده من كيت
وكيت » . . أما أن يقام وزن للواجب المعنوي في ذاته ، فهو أمر
لم يعد في بال أحد . المعنويات والمثل العليا فقدت قيمتها في
سوق الذهب . حتى الأطباء نسوا أحيانا واجبه الحقيقي .
فأصبح أغلبهم صيارف نقود . يفخر كل منهم بدخله السنوي
ولا يفخر بعمله الإنساني . والزواج أصبح هو الآخر علاقة
مكسب وخسارة في ميدان المال . فإذا تزوج أحدهم تساءل
المجتمع من الفور عما تملك العروس . لأن هذا هو المبدأ الذي
تقوم عليه الآن هذه الشركة « المقدسة » ! ورجال العلم تركوا
علمهم ونظروا إلى الدرجات والمرتبات . فلن تجد في بلادنا عالما
منكبا على عمله تحت « مكرسكوب » ليل نهار ليستكشف جديداً
دون أن يكون له مطعم غير أفكاره العلمية ونجاحها ، وخدمة

الإنسانية لذاتها . لأن هذه الأفكار والمبادئ ذابت في جو هذا المجتمع الذهبي . . وانصهرت هذه الكلمة من جديد في قالب من ذهب . . فإذا الناس ينقلبون تجاراً . كل فرد في الأمة يريد أن يكون تاجراً . . بل إن لكل شخص اليوم عمليتين : التجارة وعمل آخر . كل إنسان الآن تاجر إلى جانب عمله الظاهر . . لأن الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقلوبهم إلى حد أنساهم أنفسهم ومدلول لغتهم . . فعدا للناس قاموس جديد كل كلماته : الربح . الربح . الربح . . والمال . . المال . . المال . . والثراء . . الثراء . . الثراء . .

الحمار : إذا كان هذا هو قانون العصر ، فلماذا تريد مني أن أخرج على القانون ؟ إني كائن عصري من واجبي أن أنضوي تحت لواء « المثل الأعلى » المسيطر في زمانى . وما دامت الأفكار والكلمات قد ذهبت بدعتها من عصرنا العملى ، فأنا كذلك أخلع عن نفسى تلك البدع القديمة . .

الحكيم : أيها الحمار العصري . . إن الأفكار والمبادئ ليست من البدع القديمة فى كافة الشعوب . . أنظر حولك تجد شعوباً لم تنزل تبذل دماءها سخية من أجل أفكار ومبادئ . . ما هو الدافع الذى يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناصر إلى الجود بأرواحه ودمائه ؟ أهناك دافع آخر غير بضع كلمات ؟ ! نعم . . بضع

كلمات آمن بها فدفعت فيها دمه الغالى . كلا . . إن الأفكار
والمبادئ ليست من البدع القديمة إلا فى نظرنا نحن . . . إن
الكلمات الصادقة العظيمة بخير . . وهى لم تنزل حافظة قوتها فى
كثير من الأمم والشعوب . . وهى ما برحت جديرة أن تبذل
فى سبيلها المهج والأرواح . . قديرة على أن تثير فى القلوب حب
التضحية بغير ثمن . .

الحمار : إنك لتدهشنى . كيف استطاع عصر واحد أن يجمع هذا
التناقض ؟ دماء تسيل فى مجرى . . وذهب يجرى فى مجرى آخر ؟ !

الحكيم : لقد اجتمع الضدان فى كل زمان . . منذ فجر الخليقة والعظمة تسير إلى
جانب الحقارة . والسمو إلى جانب التدهور . . والعلو إلى جانب
الخصيصة . . ولكن العبرة أى الطريقين تختار لنفسك ولأمتك ؟ .

الحمار : إذا سألتنى أن أختار لنفسى فإنى . .

الحكيم : انطق . .

الحمار : دعنى أفكر . . فإنك تعلم أنى لا أعطيك ثمرة تفكيرى إلا بعد
ترو وتأمل . .

الحكيم : مجرد التردد فى الاختيار يجعلنى أحكم عليك بأنك حمار . .

الحمار : أتظن أنى وحدى ؟ ! اطرح سؤالك على الناس . . وخيرهم بين
المال والمبادئ . . ثم أحص بنفسك عدد المترددين . . .

الحكم : آه . . والله « غلب حمارى » ! . .

حمارى والسياسة

جاءنى حمارى أخيراً نائراً يزد وينهق ويرعد قائلاً :

— اسمع . إني مصمم هذه المرة تصميماً أكيداً . ومصرراً تاماً .
فإياك أن تثبط عزيمتى أو تحاول منعى . . أو تتدخل فى شئونى . . أو تعرقل
مشروعاتى . أو تفسد تفكيرى أو تبرد حماسى . أو تكتم شعورى . أو تخمد
نشاطى . أو تطفىء لهيبى . . . أو . . .

— سبحان الله . . . سبحان الله . . . ما هو الموضوع أولاً؟! . .

— الموضوع يا سيدى أنى قررت نهائياً الاشتغال بالسياسة .

— على الرحب والسعة . ومن قال لك إني معارض؟! . .

— أنت موافق إذن على دخولى فى معترك السياسة؟

— موافق جداً .

— هذا هو عين العقل . الواقع أنها كانت سبة أن يجلس أمثالنا

هكذا ينظرون إلى أحداث بلادهم ولا يحركون رأساً ولا ذنباً . نحن الذين

نشأنا فى هذا البلد ونعمنا بخيره وخميره ورعيننا برسيمه ونجيله وشربنا من ماء

نيله . . . كان حتماً علينا أن يكون لنا يد فى مصيره . . . ونحن من أصحاب

الفكر الراجح ومن قادة الراى الناضج .

فنظرت إلى حمارى مليا وقلت :

- أنت تتحدث عن نفسك بالطبع !

فلم يعن بالالتفات إلى ملاحظتى ومضى يقول :

- إنها لضرية يجب أن يؤديها أمثالنا . فالضرائب الواجب أداؤها

للدولة ليست مجرد المال الذى يدفع للمحصلين . ولكنها المواهب وثمراتها

والقرايح وآثارها ، إن نتاج الأذهان لا يقل عن نتاج الألبان ثروة للأمة .

وأنا كما تعلم لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أودى ضريبتى من

نتاج ضرعى . . .

- مفهوم . . .

- إذن كان يجب أن أساهم فى الحركة السياسية بنصيب . لذلك

قررت الانضمام إلى حزب من الأحزاب . .

- هل وقع اختيارك على حزب من الأحزاب بالذات ؟ . .

- لا . لم يحدث بعد . وهذا بالضبط ما جئت أستشيرك فيه . على أنه

توجد صعوبة قد تقف فى سبيلى . . . يحسن بى أن أذكرك بها حتى تكون

على بينة من الأمر قبل الادلاء بمشورتك . . . تلك الصعوبة التى تخيفنى

تتعلق بشخصى . . أبغى : هل تظن أنى سأجد أحزاباً تقبل أن ينضم

إليها حمير . . .

- اطمئن من هذه الجهة . . ولا يكن عندك خوف ! .

فلمع الفرح والأمل فى عين حمارى وقال :

— إذن قد ذلت الصعوبة . . . لندخل في جوهر الموضوع . ما هو في

نظرك الحزب الذي يتفق مع مبادئى ؟ . . .

— أحب أولاً أن أتشرف بمعرفة مبادئك .

— مبادئى معروفة : العمل لمصلحة الغير وانكار المصلحة الشخصية .

ذلك هو المأثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهرنا على الأرض . لقد عملنا

وكدحنا وجهدنا لما فيه خير الآخرين . . . ولم نسأل لأنفسنا أكثر مما

نستحق بعرق الجبين . فلم يعرف عنا أننا سرقنا كما تسرق القطط . . . ولا

نعمن بالترف والدلال كما تنعم الخيول . . . ولا طمعنا في أن نعزز ونكرم ونلقم

السكر في أفواهنا ولا نعمل شيئاً . . . بل حياتنا هي العمل للغير . . . العمل

للنفع العام . . . ولا شيء غير ذلك . . . حتى لقد جرى الناس على أن

ينعتوا من يكد ويجد بأنه « حمار شغل » . فبادؤنا هي كما ترى أن ننتج

وننتج ولا نبتغي من وراء إنتاجنا منفعة لذاتنا .

— تلك بالطبع مبادئك باعتبارك حماراً . ولكنك تريد على ما فهمت

الانضمام إلى حزب من أحزاب البشر؟! !

— نعم . . . وهل يقتضى ذلك أن أغير هذه المبادئى؟! !

— تغيير طفيف . كلمة واحدة صغيرة وضعها خلف عبارتك ليكون

مبدؤك سليماً في عرف البشر . ضع كلمة « لا » أى : لا إنتاج للغير ولا

إنكار للذات . . .

— عجباً . . . وما فائدة الحزب السياسى إذن؟

— فائدته نفع ذاته . . . أليست هذه فائدة ؟

— والآخريين ؟

— أى آخريين ؟

— الفصيلة أو الجنس أو الأمة أو الدولة أو غير ذلك من الأسماء التي تطلق على المجموع ؟ . . .

— لا تنس أننا نتكلم الآن في محيط السياسة . والسياسة هي اللبابة أو المهارة أو الخفة أو البراعة أو الكياسة التي تستطيع بها أن تسحب خاتم السلطة من إصبع منافسك وتضعه في إصبعك . . . إلى أن يغافلك المنافس ويتهز منك فرصة فيسحب بدوره الخاتم من إصبعك ويضعه في إصبعه . . . وهكذا دواليك . . . حتى يتعب أحدهما من هذه اللعبة اللذيذة وقلما يتعب . . . فالمسألة إذن لا علاقة لها بإنتاج ولا عدم إنتاج . . .

— والشعب ؟ أهو قانع بمجرد المشاهدة ؟

— ومن قال لك إنه قانع ؟ . . . لقد دخل هو أيضاً حلبة اللعب . . . إن الساسة علموه كيف يتذوق تلك اللعبة الممتعة . . . فأصبح أكثر منهم تهافتاً عليها واهتماماً بها . . . وأشد شوقاً إلى رؤية الخاتم ينتقل من يد إلى يد . . . ولا يطيق أن يصبر وقتاً طويلاً عليه وهو في إصبع واحدة . . . شأن المقامرير الذين لا يطيقون رؤية كرة « الروليت » تقف دائماً على رقم واحد بلا تغيير . فهم يهللون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد . . .

ويفرح الرابع ويحزن الخامس ثم تدور الدورة ويتغير الوضع ويتبدل أصحاب
الفرح والترح بالتناوب وهكذا دواليك . . .

— والشعب مسرور بذلك ؟

— كل السرور . . . ولقد آنت منذ زمن الحكومات هذا الميل
فيه . . . فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات . . . وتيسير اشتراك
كل فرد في هذه اللعبة ، فجرت على سنة بدیعة : وهي أن تأتي كل حكومة
ومعها برلمانها وانتخاباتها . . . أى « عدة الروليت » الخاصة بها . . . فينصب
المولد وتزدحم الجموع وتنتقل النقود من جيب إلى جيب . . . ويعلو الصياح
من فم إلى فم . . . وتمتد الموائد وتقام الولائم . . . ويكثر الطعام والشراب
والبذل والعطاء ويعمر الشعب فى جو صاخب كجو الأعياد ردحاً من الزمن
ينسيه شقاءه ويلهيه عن مصيره . . .

— هذا شيء جميل .

— جداً . . . على أن هذا كله كان يحدث فى الماضى . . . أما الآن فنحن
أمام ظاهرة جديدة . إن ثراء الحرب قد غير عقلية الناس فيما يظهر . ما من
أحد يريد أن يخسر . لذلك كثر اللعب فى عين الوقت على رقمين أو أكثر .
هذا بين اللاعبين على مائدة السياسة من أعضاء البرلمانات والأحزاب .
وقد انتقلت العدوى إلى الشعب فجعل هو الآخر مبدأه ذلك المثل الشعبى
القديم : « من تزوج أمى قلت له يا عمى » والأم هنا هى الحكومة ،
أو السلطة لذلك لا نستغرب خروج الناس أفواجا من الحزب الذى خلا من

السلطان ليدخل أفواجا في الحزب الذي لمع فيه الصولجان ، كأنهم يخرجون من دار « سينما » تعطلت فيها الرواية ، ليدخلوا المسرح الآخر الذي أضىء بأنوار الرواية الجديدة . . . ما دام هذا هو الاتجاه العام . . فنحن سائرون بدون أى مجهود نحو توحيد الأحزاب .

— إذن فأنت لا ترى لى أن أنضم إلى حزب بالذات ؟

— انضم كما تشاء ولكن على المبدأ الشعبى . . .

— « من تزوج أمى . . ؟ »

— بالضبط .

— ولكن . . .

— لا تقل ولكن . . . ولا تكن حمارا . . . إن عناد الحمير وصلابة رءوسها لا تنفع فى السياسة . اليوم كل شىء لين مرن . . . لا فى المبادئ وحدها ولا فى المحيط السياسى وحده . . بل فى كل محيط . . . حتى بين الموظفين المسؤولين عن تنفيذ القوانين . . . ألم تسمع بخبر ذلك المأمور الذى حبس مجرماً من مجرمى التموين تطبيقاً للقانون ، فاتصل به أحد ذوى النفوذ وأمره أن يفرج عنه فوراً . . فأخرجه من الحبس بعد الصفع والإهانة . . وأجلسه فى مكتبه . . ووقف هو بين يديه قائلاً : « والله لا يصح أن تنصرف عنا قبل أن تشرب القهوة ! »

— يا للعجب ! . .

— لباقة . أليست لباقة ؟ . .

— وأسفاه ! إني لا أملك هذه اللباقة .

— إذن ... إجلس حيث أنت . . . ولا تطمع في الاشتغال بسياسة
أو إدارة ! ..

— بيني وبينك .. ألا تظن أن هذه الحال في مجتمعكم يجب أن تصلح؟
— من فضلك لا تلق على " أسئلة عويصة . . . لأن ذلك سيجرنا إلى
التساؤل : من الذى يصلح؟ أهو المجتمع الذى يصلح الحكومة أم الحكومة
هى التى تصلح المجتمع؟ . . وهذا لا أجيب عنه إلا إذا أجبتنى أنت :
هل البيضة من الفرخة أو الفرخة من البيضة؟

— دعك من السفسطة ! من يدري؟ ربما استطعت أنا أن أصلح ...
إن اشتغالى بالسياسة على مبادئى قد يعطى على كل حال خير مثل من أمثلة ...
— من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة . . الجديرة بحمار . . هذا ما سيقال
عنك وعن مبادئك ...

— فليقولوا ما شاءوا ...

— إني أعلم منذ الآن ما سوف يحدث . . . فاجلس حيث أنت ،
واسمع نصيحتى ! .. إنك لن تؤثر فيهم بمبادئك . . ولكنهم هم الذين
سيؤثرون فيك بمبادئهم . . ولن يمضى وقت طويل حتى ترى أنك أنت لم
تعد حماراً ...

حمارى والطالبة

قال لى حمارى يوماً إنه يلاحظ أنى بدأت أتبرم بمؤونة أكله ، وهو لا يعمل شيئاً غير إبداء الآراء ، فأقترح على أن يقوم لى بوظيفة «السكرتير» الخاص أحياناً . فقبلت . . . وجاءنى أخيراً يقول إن بالباب فتاة من طالبات الجامعة تريد مقابلتى . فقلت له إن فكرتى عن الجامعة المصرية وطلبتها وطالباتها غامضة كل الغموض . فأنا قد تخرجت فى مدرسة الحقوق القديمة قبل أن تنشأ الجامعة ، فلم أحضر عهد النظم الجامعية فى بلادنا ، ولم أشهد ذلك الحدث الخطير فى تاريخ الشرق : وهو جلوس الفتى والفتاة معاً تحت شجرة العلم المورقة . فأجابنى حمارى بأنها إذن فرصة سانحة لمعرفة ما لم أعرف . . . فقلت له بعد تردد : « أدخل الطالبة على شرط . . . » فسأل عن الشرط . فأجبتة : هو أن لا يتدخل فى حديثى معها لا بصفته حماراً ولا سكرتيراً . . . بل ينتحى جانباً ولا ينبس بحرف ، خشية أن يلفظ كلمة من كلماته لى تصغرنى فى عينيها . . . وكان شهماً قبل . . . ومضى فأحضر الفتاة ، وأجلسها أمامى ، وقبع هو فى ركن بعيد . . . وتركنا نتبادل هذا الحديث :

قلت لها :

— اسمحي لي أولاً أن أدعوك حواء ..

فقالت من فورها :

— ولكن اسمي الحقيقي ...

— لا شأن لي باسمك الحقيقي .. أنت في نظري الآن تمثلين كل

طالبات الجامعة وعلى هذا الاعتبار أوجه إليك الكلام . لقد دخلت يا حواء

جنة العلم لتتطفي إلى جانب الرجل أشهى ثمار الفكر ! ..

— أو لسنا مساويات للرجل في كل شيء ؟

— لست أدري . إنما الذي أريد أن تعرفيه هو أنك حواء في جنة ..

— الأورمان بالجيزة !

— إني لا أمزح الآن ، لأن كلامي يرمى إلى مغزى يجب إدراكه حتى

لا يتكرر وقوعك في عين الغلطة ..

— أي غلطة ؟

— إني أخشى دائماً دخول حواء الجنة .. أي جنة ! ..

— إن الجنة لا تسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء .. لا توجد جنة

بغير حواء ! .

— هذا صحيح للأسف .. لكن ..

— قل لي بالصراحة : ألا تأسف على أنك لم تحضر عهد

الجامعة الحالي ؟

— يخيل إلى أنى لو كنت حضرت جامعة اليوم لما نجحت
ولا أفلحت !

— معنى ذلك ؟

— لا تسألينى إيضاحاً ولا بياناً . . افهمى هذا القول على الوجه الذى
يروق لك !!

— حذار أن تشك فى مقدار فهمى ! إنى أفهم جيداً . .

— ذلك أخشى ما كنت أخشاه . . لا تخرج الجامعة مثيلات لباحثة
البادية ولا قريعات لمى . . ولكنها تخرج شيطانات صغيرات قد أكسبن
الخروج إلى المجتمع والاختلاط بالرجال والاتصال بذوى الأفهام شيئاً كثيراً
من الفطنة والذكاء . .

— ولماذا تخشى ذلك ؟

— لأن الذكاء سلاح خطر لا ينبغى أن يوضع فى يدى امرأة إلا بعد
إعداد روى طويل .

— ولماذا لا تقول ذلك أيضاً بالنسبة إلى الرجل ؟

— الرجل ! الرجل . دائماً الرجل ! أتركى الرجل وشأنه . نحن الآن
نتكلم فى المرأة .

— آه يا للمرأة . إذا ابتليت بالجهل فهى مخلوق تافه ، وإذا منحت
الذكاء فهى مخلوق خطر !

— من غير شك . تأملى أمر جواء . . الأخرى الحقيقية . لقد كفى

أن يلقنها « إبليس » شيئاً من الإدراك وأن يلقى في روعها قبساً من الذكاء ،
لتخرج على الفور آدم من جنة عدن !
— لست أدري ماذا أجيب دفعاً لهذا الاتهام الشنيع . إنكم معشر
الرجال لتستخدمون كل ذكائكم في القاء مسئولية الأخطاء العظمى على
كاهل المرأة !

— هذا على كل حال استخدام لا ضرر فيه .
— لا ضرر في أن تلتصق بنا نحن المخازي والأباطيل ! أرايتم كيف
تضعون دائماً بين مشاعركم ومشاعرنا ومصالحكم ومصالحنا وشؤونكم وشؤوننا
هذا السد المنيع ! حقاً ! إن المرأة والرجل مخلوقان مختلفان منفصلان .
وأتم الذين أردتم ذلك .
— الطبيعة هي التي أرادت ذلك . ولكن المرأة لا تريد أن تكف
عن تكذيب الطبيعة والصراخ في وجهها : « لا فاصل بيني وبين الرجل .
إني مساوية للرجل في كل شيء » .

— لا تهموا الطبيعة أيضاً ظالماً وباطلاً . إنها هي التي شاءت ألا يكون
بيننا فرق من تلك الفروق التي تصطنعونها . تذكر يوم كنا في الجنة . أعني
حواء الأخرى وآدم الآخر ... ماذا كانا يعملان طول النهار ؟ ماذا كانت
تصنع حواء ؟ أظنك لن تزعم أنها كانت تصنع لآدم صينية بطاطس في
الفرن ، لقد كانا متساويين في كل شيء ... في نوع الحياة .. في نوع الواجبات
والحقوق والمشاكل والأفكار . كل منهما كان يقطف فاكهته بنفسه لنفسه

وكل منهما كان يفعل ما يفعل الآخر كأنهما زميلان ندان . إني أتحدّك الآن . . أن تذكر لي عملاً واحداً انفردت به حواء دون آدم أيام أن كانا في الجنة؟! تكلم . لماذا لزمتم الصمت؟ أذكر مثلاً واحداً فقط؟

— سبحان الله! كيف تريدني مني أن أعرف نظام الحياة الزوجية في الجنة؟ من أدراني كيف كان توزيع العمل في أسرة آدم وزوجته؟ تلك مسألة فيما أظن لا يعرفها غيرهما . . ومن يدري ربما كانت حواء هي التي كان عليها هناك أيضاً أن تقطف الفاكهة وتغسلها جيداً في نهر الكوثر وتعد المائدة لآدم . . .

— أبداً .. أبداً .. أبداً .. من أين أتيت بهذا الكلام .. هذا خيالك باعتبارك رجلاً!

— إني أتحدّك أن تذكرني من الذي كان « يفصل » من ورق شجرة التين الأثواب التي كان يستر بها آدم بعض أجزاء بدنه! إني أراهن على أن حواء هي التي كانت تقوم على الأقل بمهمة التفصيل والتطريز .
— آه معشر الرجال! ما أشد رغبتكم في أن تجعلوا منا طاهيات لكم وخادمات! . .

— في هذا تشریف لقدركن .

— ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

— أقول إن مجد المرأة الخالد هو في أن القدر قد كتب على الرجل أن

ينحني ليطعم من راحتها! . أنت التي تمدين الطفل والشاب والرجل بالغذاء

أى مادة الحياة . أنت التى جعلت منك الأساطير والديانات القديمة صورة
لآلهات الخصب ورمزاً لفكرة « الحياة » !

— لن نخدعنا بهذا الكلام المنمق . نحن نرفض هذه المهمة الصغيرة ،
مهمة إطعامكم . . لأننا نحس فى أنفسنا القوة والقدرة والكفاية للقيام فى
معتك الحياة بمهام أخطر من ذلك وأعظم !

— مهام أخطر وأعظم ؟ مثل ماذا ؟

— نحن نتعلم فى الجامعة مثلما تتعلمون ، وتتخرج فيها بشهادات فى
الحقوق والطب والآداب والعلوم مثلكم تماماً ، وأحياناً كثيرة نسبكم
ونبزكم فى النبوغ ، فلماذا لا يكون لنا مثل وظائفكم الهامة فى المجتمع ؟

— ما هو أقصى ما تطمعن فيه من تلك الوظائف الهامة ؟

— لماذا لا يكون لنا مثلاً حق الانتخاب لعضوية البرلمان ، لماذا

لا تكون منا سياسيات ومستشارات ووزيرات . . . لم لا ؟

— واأسفاه ! أهذا أبعد وأرفع وأعلى ما تنظرن إليه ؟

— ولم لا ؟ ولم لا ؟

— أنا شخصياً لا مانع عندى مطلقاً من أن تهبطن إلى هذا المصير !

ولكن بقية الرجال منذ فجر التاريخ قد خصوكن بمنصب يحسبون أنه أسمى

من كل منصب !

— أهنالك منصب أسمى من المستشاراة والوزيرة ؟

— نعم . الإلهة والملكة ! ما أحق الرجال ! طالعى جيداً أيتها الأنسة

كتب التاريخ . بل تأمل تاريخ أى رجل : إن الخطاب فى الغابة يكذب
كالعبد الرقيق طول نهاره ليعود عند الأصيل إلى ملكة وإلهة فى داره يضع
عند أقدامها أجر جهاده . وإن نابليون بعد كل معركة كان يرسل إلى
أعتاب جوزفين أخبار انتصاراته كأنها القرابين . وإن كل عظيم إنما يعمل
ويجهد ويناضل وينهزم ويفوز ووراء خاطره شبح امرأة موجودة أو
غير موجودة ، أم أو زوجة أو صديقة يهدى إليها آخر الأمر ثمرات نضاله .
ما كفاح الرجل إلا قربان للمرأة . إن حواء يوم أخرجت آدم من الجنة ،
إنما أخرجته لتسود عليه . لقد قلت لى أنت إن المساواة بينهما فى الجنة
كانت تامة . فلا صدقك . ولكن المرأة لا تريد المساواة . إنها تريد السيادة ..
وهى فى الجنة مستحيمة . فكان عليها إذن أن تخرج برجلها إلى الأرض
والحياة والكفاح لتجلس هى على العرش وتجعله عندها عبداً رقا يكذب من
أجل لقمة من يديها . حواء هى دائماً حواء . لستن أنتن الطاهيات الخاديات .
بل نحن معشر الرجال الخدم والعبيد ، نشقى حياتنا من أجل لقمة من
أيديكن . ومع ذلك ... لا نسمع منك غير المن والترفع ...

— هاهاها ! ..

— تضحكين ؟ !

— حقاً أنت أنت لا تتغير . ترفعنا وتخفضنا كما تشاء ، وتجد مع ذلك

الأسباب والحجج التى يصعب دفعها !

— لو عرفت الحقيقة لأدركت أنى أريد أن أحتفظ لكن دائماً

بمنصبكن السامى الخطير ، منصب : الإلهة والملكة . لاحقاً لسواد عيونكن بل لأنى أعلم أن الرجال لا يستطيعون أن يعيشوا وأن ينتجوا بغير أن تحكمهم الأيدى الناعمة ! إنى لا أنظر إلى مصيركن وإنما أخشى على مصير الرجال إذا أخشوشنت أيديكن ، ففقدت سحرها الذى يدفعهم إلى الكفاح والنضال والعظمة . إنى أريد أن أحافظ على « الإلهة والملكة » فيكن . كما كان العباد الوثنيون يحافظون على أصنامهم . لذلك أخشى عليكن من تأثير الجامعة . جامعة الرجال . التى قد تصب عقولكن فى قالب عقل الرجال . وتسلب « معاملها » الكيمائية من أيديكن النعومة اللازمة لأيدى الإلهات والملكات . أنت الآن يا حواء فى « الجامعة » تعودين إلى المساواة بالرجل كما كانت حواء الأولى فى « الجنة » ... فأين اليوم « إبليس » الذى يغريك بالخروج منها ، كى تستعيدى فى يديك السيادة ؟

— لا تؤاخذنى ! يا للهول ! إنى ألمح فى عينيك بريق نظرات إبليس ؟ وانطلقت الفتاة خارجة وولت هاربة . . .

حمارى والقاضية

ذكرنى حمارى ذات ليلة بعهد اشتغالى فى القضاء ، ولعله أراد فيما يظهر أن أسليه وأرفه عنه ، فطلب إلى أن أتصور جلسة قضائية فى محكمة ترأسها امرأة ، لما يتوهمه من رأبى فى المرأة . . فلم يستطع ذهنى أن يتخيل ذلك المنظر . . وتركته آخر الليل ، وذهبت إلى فراشى . . ونمت نوماً عميقاً . . فإذا بى أرى حلماً مزعجاً لو نجحت فى وصفه كما وقع ، لأغنانى عن تخيل ما كان قد طلب إلى :

رأيت فى الحلم أنى رجل متزوج !!! يا للكارثة . . ومتزوج بمن ؟ بسيدة تشتغل بوظيفة فى القضاء . . إنها قاضية فى محكمة مصر الابتدائية الأهلية . وخيل إلى فى الرؤيا أنه قد مضت سنوات وأنا رازح فى قيود هذه الزوجية الطريفة ، راضياً بما كتب على قانعا بما قسم لى . . لا أجد غرابة ولا غضاضة فى ذلك اللون من الحياة . . وتلك ولا شك من خدع الأحلام ، فهى تجتاز بنا الأعوام فى شبه طرفة عين ، وتضغط الوقائع الكبار والأحداث الجسام ، وتضعها فى شبه برشامة يجرعها النائم فيحس تتألم ما حدث كأنه أمر طبيعى عرض له فى الحاضر القريب أو الماضى السحيق ، على أن الأغرب من ذلك أن أجد فى الرؤيا أنى أب لطفلة فى العام الثالث

من عمرها . . وأن أحس نحوها كل عواطف الأبوة . . عجباً . .
كيف استطاع الحلم أن يضع في قلبي مشاعر لا أعرفها ولم أحسها قط . .
كانت الطفلة في ذلك اليوم مع مر بيتها ، وكنت أنا بجوارها ألاعبها وخيل
إلى أنى قد جعلتها تمتطى كتفى وصرت أركض بها مثل الحصان ، وهي تضحك
تلك الضحكات الصغيرة البريئة ، ثم دقت الساعة الثانية . . فأحست
الطفلة الجوع وبدأت تتمايل ، ثم قالت «ماما» . . فتنبهت إلى أن السيدة
حرمي لم تعد إلى المنزل بعد . . فعلياً إذن أن نتناول الطعام أنا وابنتي
وحدنا . . فأنا أيضاً أشعر بجوع ، ولكن ماذا تصنع زوجتي في المحكمة
حتى الآن ؟ ألقيت على نفسي هذا السؤال مرة ومرتين . . ودفعني الفضول
وحب الاستطلاع إلى أن أتحرى الجواب . . فتركت الطفلة تتغدى مع
المرية ، وأسرعت أنا في سيارتي إلى محكمة مصر الأهلية . . سألت عن
الست . . فقيل لي إنها في الجلسة . . فهي منتدبة قاضية للإحالة ، وهي
تنظر في إحدى الجنايات الهامة . . فدخلت قاعة الجلسة ، وجلست في
مقاعد الحضور المحتشدين ، واندمست بين جموع المشاهدين ، فشاهدت الآتى :
زوجتي المصونة والجوهرة المكنونة متصدرة القاعة على المنصة متوشحة
الوسام الأحمر فوق رداء أسود حقيقة ، لعله يحل رسمياً بالنسبة لمن محل
الردنجوت أو (الاسطنبولينه) ، ولكن يظهر أنها حلت بعض أزراره
عمداً ، فكشف من تحته عن ثوبها (الكريب دى شين) الوردى الذى
تفاضتني ثمن تفصيله منذ أيام . وإذا هو يتسق اتساقاً جميلاً مع لون الوسام

وهالاه ونجومه النحاسية اللامعة . ولم يكن من اللائق طبعاً أن يبدو على
شعر حضرة القاضية أو على وجهها وشفتيها آثار « التواليت » بشكل يلفت
النظر ، ولكنها مع ذلك لم تنس قط أن تمر مر الكرام على ذلك الوجه بقليل
من « البودرة » ، ولا أن تخط بخفة على ذلك الفم خطاً أحمر يستطيع قراءته
ذوو الأفهام . فالمرأة هي المرأة دائماً . سواء ألبست النقاب وانخلخال أم الوسام
وخوذة القتال . وكانت الإجراءات الأولى للقضية قد انتهت بوصولي ، ولم
يبق إلا دفاع المحامي . فقد أبصرت القاضية الفاضلة مستغرقة كل الاستغراق
في الاصغاء إلى مرافعته الحارة ، وكان ذلك المحامي شاباً وسيماً من شبان اليوم
الذين يحسنون تلميع شعورهم وتنعيم وجوههم وتنعيم أصواتهم .

فوقف متجهاً بكل جوارحه نحو الست زوجتي ، وكأنه يضمن حتى
بمجرد الالتفات إلى الأنسة « وكيلة النيابة » بوسامها الأخضر الأحمر
وحركاتها العصبية الممزوجة بالدلع والدلال . . . وقد كانت حضرتها على
لطف إشارتها ورقة إيماءتها تعوزها الملاحظة التي تفنن مثل ذلك الشاب .
أما حرمانها من سوء حظي كانت فيما يظهر أجمل من زميلتها قليلاً ، فجذبت
إليها وحدها عيون المحامي وعنايته واهتمامه ، وربما قلبه أيضاً وعقله وباله
وبلباله . . . وجعل هذا المفتون المأفون يتمايل تارة ويرتب بأنامله نظام
شعره تارة أخرى ويقول :

— يا حضرة الرئيسة . . . هذه قضية الحب . قضية القلب . . . هذه

القضية المطروحة بين يديك هي قضية متهمة تعسة مسكينة لم ترتكب شيئاً

غير الإصغاء إلى صوت قلبها . ومتى كان في الاستماع إلى نداء القلب جريمة ؟ يتهمون موكلتي بأنها قتلت زوجها بالسم لتفر مع حبيبها . هذا صحيح . وقد اعترفت في محضر التحقيق . نعم لقد لجأت إلى القتل . ولكن فلنسأل لماذا فعلت ذلك ؟ هذه المتهمه خدعها أهلها فزوجوها من رجل أقنعوها بالزواج منه لأنهم وجدوه القرين الكفاء . وكم من الفتيات يغريهن أهلن بأن يتزوجن رجلا لا يحببهنه ، لماله أو جاهه أو شهرته ، فيرضين مدفوعات بهذا الإغراء . ثم تمر الأيام وينطفئ البهرج الخادع . . . وإذا الشقاء يخيم كالليل البهيم على قلوب هاته الزوجات التعسات . هذا ما حدث لهذه المتهمه . . . اقترنت بزوجها المجنى عليه وعاشت معه أعواما أنجبت منه خلالها طفلة جميلة . . . ولكنها مع ذلك لم تحس لهيب ذلك الحب الجارف العارم والغرام المحرق الضارم الذي قرأته في القصص وشاهدته في السينما . . . يا للهول . . . أسيقدر لها أن تعيش حياتها دون أن تعرف هذا الهناء أو تبصر لونه . . . هذا حقها . . . هذا حق كل فتاة . . . فلكل فتاة الحق في الحب . . . في هذا اللون من الحب . . . يجب أن تصادفه ولو مرة في حياتها . . . وكان كل ذنب موكلتي . . . وكل جريمتها أنها صادفت أخيراً هذا الحظ ونالت هذا الحق . . . كان ذلك في يوم هياه القدر بدقة وحكمة وتديير . . . فقد وجدت ضالتها في صورة شاب جميل تبعها يوماً في الطريق من محل شيكوريل إلى منزلها وتمكن من معرفة رقم تليفونها . . . فوالاها بعنايته وبها هواه ولوعته . . . وسألها أن تصغى إلى

ترانيم الغرام ونداء الهيام ، وتترك منزل الزوجية وتتبعه إلى الفردوس المفقود
والنعيم المنشود ... ماذا تصنع هذه الزوجة في هذا الموقف يا سيدتي
الرئيسة ... من حسن الحظ أن القاضية لهذه المتهمه امرأة مثلها تستطيع
أن تفهمها ... فما من أحد يفهم قلب المرأة العاشقة غير المرأة ...
ولم تنطق حضرة الرئيسة . ولكنها تنهدت .. وأشارت برأسها إشارة
معناها أنها فهمت !! واستمر المحامي الرشيقي يقول :

— كانت أمام موكلتي عقدة يجب حلها ، وعقبة في سبيل هناها يجب
تذليلها ... هي زوجها . إنها كانت تعلم أن هذا الزوج يعبدها عبادة ...
وأنه إذا علم بفرارها انتحر لا محالة ... وقتل نفسه أشنع قتلة ... فقد
جاهر لها أنها هي كل شيء في حياته ، فإذا خرجت من هذه الحياة فأيسر
من ذلك عنده خروج روحه من بدنه ، فما العمل ؟ أتتركه يضع السكين
في فؤاده ؟ ...

أدعه يتألم ذلك الألم المادي من جراحه والمعنوي من خيبة أمله فيها ؟
كلا ... إنها زوجة طيبة النفس رقيقة الحاشية حية الضمير ... كان
يجب عليها أن تؤدى واجبها المقدس نحو زوجها الأمين ... وقد فعلت ...
نعم لقد اختارت له ، ووقفت في الاختيار ، نوع الموتة الهينة اللينة التي
لا تشعره بعذاب ولا ألم ...

وتهدج صوت المحامي في هذه العبارة وتوقف عن الكلام خشية أن
تخفقه العبرات . ونظر إلى رئيسة الجلسة المطرقة الساهمة ... فإذا بها

— لدهشتي — قد بلغ بها التأثير . . . والتفتت إلى وكالة النيابة قائلة في

صوت خافت : *يا ربنا يا ربنا من هذا صوتك . . .*

— « معاكى » مندبل يا نبوية . . . نسيت مندبل في أودة المداولة . . .

وانطلق محامى المتهمه ماضياً في مرافعته قبل أن يبرد الموقف فصاح :

— نعم يا حضرة الرئيسة . . . لقد قامت موكلتى بواجبها كزوجة أمينة

وفية لزوجها . هذا السم الذى لا يحدث آلاما قبل الوفاة ، ولا يحس من

يتعاطاه شيئاً سوى انغماء بسيط يعقبه نوم هادى طويل عميق كأنه نوم

الأطفال . . .

فقاطعتها القاضية الكريمة سائلة :

— من فضلك السم ده اسمه إيه ؟

فلم أطق صبراً ، ولم أستطع احتمالاً ولا انتظاراً لنهاية القضية ، ولا لشيء

آخر بعد ذلك . فهضت مرتاعاً من مقعدى ، وخرجت من قاعة الجلسة

وأنا أقول :

— قسما بالله العظيم ما أتعدى فى بيتنا بعد اليوم . . .

وأعمانى الذعر ، فعثرت قدمى بعتبة باب الجلسة فبويت على الأرض . . .

وعندئذ فتحت عيني ، فإذا أنا متدحرج من السرير على أرض الحجر . . .

فتمت أفرك أجناتى وأقول : « الحمد لله انى سليم معافى ولم أتزوج قط . . .

ولن أتزوج أبداً . . . حتى إذا اختارنى ربى إلى جواره وأدخلنى الجنة ،

فسوف أطلب إليه أن يكون بينى وبين الحور سور ! ..

حمارى وحزب النساء

قال لى حمارى وهو يلمح بعينه فى إحدى الصحف خبر تأليف
حزب نسائى :

— ما رأيك فى الحزب النسائى؟ طبعاً لا بد أن يكون لك فيه رأى ..
أليس كذلك؟
فأجبت قائلاً :

— أمن الطبيعى فى نظرك أن يكون لى فيه رأى؟ لا بأس ، ليكن
الأمر كذلك وأظنه طبيعياً أيضاً أن يكون هذا الرأى فى جانب حزب
النساء... ولم لا؟... إنى رجل مظلوم . ولسوف يؤلف عنى كتاب بعد
موتى : «توفيق المفترى عليه» . الواقع أنى دائماً أتمنى للمرأة تقدماً . ولاأختلف
معها إلا فى معنى كلمة «التقدم» فهى تفهمها على أنها الجرى فى إثر الرجل
واللحاق به . وأنا على العكس أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة .
فالمسألة فيما يظهر لا تعدو مجرد خلاف فى الرؤية والنظر . وحتى الآن لم
يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين سليمتين ، ليبصر لنا أيهما
هو الذى يسير خلف الآخر؟! ..

ولأسلم على كل حال بنظرية المرأة إثباتاً لحسن نيتي . ولنقل إن الرجل هو المتقدم وإنها هي المتخلفة . وتفانياً مني في إرضائها أقول إن هذا التخلف يبدأ منذ نصف مليون سنة ، أي من عصر الكهوف ، يوم كان الإنسان الأول يعيش حياة الصيد في الغابات ، تاركاً أمثاله في كهفها تعنى بصغارها وتهيباً مما صاد لها ولأطفاله طعامهم وطعامها . . . لقد كان هذا التوزيع في العمل بأمر من الطبيعة التي زودت الرجل بعضلات قوية للكفاح خارج الكهف، وحبب الأثني بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للأمم داخل العش . ومرت آلاف الأعوام ، وهذا التقسيم في أعمال الجنسين قائم ، وإن كان الصيد قد تغير حتى اتخذ اليوم ألواناً جديدة مثل : المال والجاه والمنصب والنفوذ . الخ وتبدلت كذلك الأسلحة ، فذهبت القوس والنشاب وحل محلها سلاح آخر معنوي اجتماعي ذهني تصاد به كل تلك الأغراض ، مما اصطلحنا على تسميته بالعلم والخبرة والقدرة والسياسة الخ . . . كذلك تغير كهف المرأة فأصبح « شقة » نظيفة أو « فيلا » مريحة ، تخطر فيها بأثوابها الأنيقة وزينتها البديعة ، وتعنى بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجثمانية والخلقية . . .

لم تستطع إذن خمسمائة ألف من الأعوام أن تحدث من التغيير في أوضاع الجنسين أكثر من ذلك . ولقد لبث لسكل منهما عالمه المنفصل ومجال نشاطه المستقل طوال هذا القدر الهائل من الأحقاب . الرجل له الخارج والمرأة لها الداخل . وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تكيف طبيعة الإنسان

فإذا راق للمرأة اليوم أن تغير طبيعتها ، وحلا في عينها أن تعمل ما يعمله الرجل ، فتشتغل بأعمال الخارج وتخوض بنفسها غمار الكفاح في ميادين السياسة والجاه والسلطان ، فذلك موكول إليها . وكلنا نرحب به . بل إنى أناشدها أن تسرع منذ الآن . ولتبدأ من البداية في الحال ، حتى لا تضيع وقتاً على من سوف يأتي في المستقبل من أجيال . .

والاقتراح العملي لتحقيق ذلك ، هو أن نبادر من فورنا فترسل حضرات سيدات الحزب النسائي إلى مجتمع فطرى يشابه مجتمع الإنسان الأول . وأظننا نجد مثل هذا المجتمع الآن في غابات أواسط أفريقيا . هناك نترك البعثة الكريمة لتضع أساس الحياة المنشودة . وعليها أن تعيد توزيع العمل من جديد على الوضع العكسى ، فتتولى هى القيام بأعمال الصيد في الغابات ، وتدع للرجل العمل داخل الكهوف . . . ولنتنظر نصف مليون سنة أخرى ، وهذا ليس بكثير ، حتى تتوالد أجيال جديدة من النساء المكافحات ، يرفعن رؤوس أجدادهن ، ويسطرن بمداد الفخار مبادئ الحزب النسائي الموقر ! . .

على أنى أخشى أن يرى الحزب النسائي أن اقتراحى هذا غير عملى .
فمن الواجب إذن أن تفكر فى حل آخر ...

قد تقول لى بعض النساء المحترمات : لماذا لا نجرب ونسمح لهن منذ الآن بمقاعد فى البرلمان ؟ . . أنا شخصياً لا أرى مانعاً من إعطاء المرأة حق

التمثيل السياسى فى مجلس النواب (بالطبع جميع النساء متنازلات مقدماً عن حقهن فى مجلس الشيوخ) . وزيادة فى تسهيل الأمر على إخواننا المحافظين المتعنتين من الرجال أقترح الأخذ بمبدأ إن « للذكر مثل حظ الأنثيين » ، فىكون لكل امرأتين صوت واحد . . . وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقتاً لإرضاء لغرور الرجال . وإنى على أتم استعداد لمعاونة المرأة والمطالبة معها بهذا الحق على هذا الأساس . . . إلا إذا اعترض حزبهن الموقر بأن هذا الرأى أيضاً غير عملى ، بحجة أن اشتراط صوت لكل امرأتين يتطلب وجود امرأتين فى البرلمان يمكن أن تتفقا على رأى واحد . وهذا بعيد الاحتمال . . .

مهما يكن من أمر ، فإنى راغب من كل قلبى فى منح المرأة حقوقاً سياسية مساوية لحقوق الرجل . وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذى تنبأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة .

وهنا فليسمح لى بسؤال : هل ستكون هن مقاعد خاصة باعتبارهن حزباً منفصلاً قائماً بذاته ، أو أنهن سيدخلن على مبادئ أحزاب الرجال المعروفة ، ويمتزجن بها ، كل واحدة ضمن الحزب الذى يرشحها ؟ إذا كان الأمر الأول ، فلا شك أن حزبهن المستقل سوف يكون فى الشؤون النسوية صاحب الكلمة التى لا تعصى ولا ترد . فإذا اقترح الحزب النسائى مثلاً إعفاء « البودرة » و « الروج » و « الجوارب » من كل

ضريبة جمركية أو تجارية ، فإن هذا الإعفاء نافذ بدون كلام ، والرجل الذي يجرؤ على المعارضة يكون مستعداً لنكد الدنيا يهبط على أم رأسه ، لا في البرلمان وحده ، بل في بيته من زوجته أو أخته أو ابنته . . . أما إذا كان الأمر الثاني ، فإنى لا أرى فائدة كبرى تعود على المرأة منه . وأخشى مخلصاً أن تطويهن مطامع الأحزاب الأخرى ، فلا ينتفعن لأنفسهن بشيء .

لى بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب أن توضع موضع الاعتبار : لقد عاب أحد الشيوخ المحترمين على النساء الموظفات حرصهن على زينتهن . وأنا لست من رأيه . إذ ما دمنا قد سلمنا للمرأة بمقوقها في الوظائف العامة ، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال حقها الطبيعى في « الأحمر والأبيض » . . . وما أحسب أحداً من زملائها في البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتخذ مكانها فيه ، . فإن الوجه النظيف والتزين اللطيف من أبلغ حجج المرأة . وليس من الإنصاف أن نحرمها سلاحاً من أسلحة بلاعتها المأثورة ، في ساحة يتذرع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والاقناع . . .

وأخيراً ، يا حمارى العزيز فإنى أنلخص لك رأى فى كلمة واحدة هى : موافقتى التامة على وجود المرأة فى البرلمان وفى كل مكان إلى جانب الرجل لأن مجرد وجودها يحدث نشاطاً فى الهمم وتآلقاً فى الأفكار . . . لقد قلت ذات مرة : « إن المرأة مثل القمر . . . (أقصد بمعناه الفلكى

لا الشعري) فهي لا تشع ضوءاً من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتي إليها من شمس عقل الرجل . هي كالقمر كائن سلبي ، و سطح معتم في ذاته لا تسطع إلا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل وإحساسه ... فدورها منه في مجال العمل المنتج ، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة إلى جانب المصباح . . . إنها تضاعف نوره ، وتزيد إشعاعه .

أما أن تنتظر منها أكثر من ذلك فهو انتظار للمستحيل . لن يكون للنساء في مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما للمرايا بجوار المصابيح في القاعات والصالات .. ولقد بلغنا ولا شك في الحضارة حداً يقتضى أن نزين جدراننا بالبللور !!

حمارى وعداوة المرأة

قال لى حمارى ذات يوم :

— لماذا انفردت بين الأدباء باحتقار المرأة؟

— ومن قال لك إني انفردت؟ .. هنالك العقاد .

— وهل يكره العقاد المرأة حقاً أو يحتقرها؟

— هذا سؤال يحسن أن تلقيه عليه . أما أنا فأتخيل أنه سيحببك

صائحاً هذه الإجابة الوافية الشافية :

« أنا أكره المرأة؟! من يقول ذلك عنى؟ حبي للمرأة أمر مقطوع به ، ولم يكن يوماً موضع شك أو جدال . فأنا رجل ظاهر السريرة ، واضح النهج ، حياتى صريحة لم يسبغ عليها قط رداء الغموض . مودتى أمنحها أمام الملاء ، وعداوتى أعلنها على رؤوس الاشهاد ، فنذا يستطيع أن يزعم أنى وقفت تجاه المرأة موقفاً ينم عن زراية أو بغضاء؟ أين بدا ذلك منى؟ هأنذا ألقى بقفاز التحدى . ومع ذلك أضغى أحياناً إلى همسات تتصاعد من قرارة نفسى ، أرجو أن لا يكون لها صدى يبلغ آذان النساء . همسات تنبئنى بأن المرأة كانت فى نظرى وتكون .. شيئاً لا يستحق غير الامتهان :

زرقة عينيك لا صفاء فيها ، ولكنه فضاء*

* الاستشهادات الشعرية كلها من ديوان «أعاصير مغرب» للأستاذ عباس محمود العقاد .

حمرة خديك لا حياء فيها ، ولكنه اشتها
وجهك سبحان من جلاه ولوث النفس بالطلاء

قلت ذلك حقاً في المرأة ، ولست أدري كيف أنشدته وسطرته ونشرته
دون أن أثير خصومة ذلك الجنس الخطر ! . . . السبب في ذلك بسيط :
إني أعامل المرأة كما ينبغي أن تعامل : لا بالعقل الرشيد ، ولا بالمنطق
السديد ، أنا الذي حذق التحليل المنطقي وبرع في التدليل العقلي ، ووضع
كل شيء تحت مصباح الطريقة الذهنية ، وأخضع كل بحث إلى الأسلوب
الفكري ، رأيت أن أشد عن هذه القاعدة في علاقتي بالمرأة .

لم أحاطبها قط يوماً بغير لغتها . لذلك فهمتني ، ولم تثر في وجهي ، إني
لم أصنع للمرأة تمثالا مموهاً بالقداسة الزائفة ، ولم أرد لها كما يرد لها خيال
أولئك الشعراء الذين يركبون إليها القوارب الثملة ، ويمخرون نحوها البحار
البعيدة ، ويبحثون عنها في الشواطئ المجهولة ، وهي منهم على قيد خطوة
جالسة تنتظر وتكاد أقدامهم تتعثر فيها وهم لا يبصرون . . . كلا . إني
أبصرها . . . وأراها دائماً كما هي . . . وكما خلقها بارئها : فأكية شهبية غضة ينخر
فيها الدود . . . فلتنفض عنها دودها ، ونحن نحفي اشمزازنا ، ولنطبق عليها
بأنيابنا ، ونلتهمها بأفواهنا ، ثم نطرحها جلدة رثة . وقشرة بالية ، هكذا
أراد لها القدر ، فماذا نريدها نحن على غير ذلك :

أنت الملووم إذا أردت لها ما لم يردده قضاء باريها
تلك نظرتي إلى المرأة . لم أوصد دونها بابي يوماً . ولم أشح عنها بوجهي .

لقد فتحت باب حياتي على مصراعيه لكل امرأة . . . تدخل بسلام
آمنة ! . . كل النساء على السواء : ممن أطلق عليهن اسم الفاضلات ، وممن
حسبن في غيرهن . . . ومن أنصاف أولئك وهؤلاء ! . . لكن نوع المعاملة
قلما يتغير . . . قد أغير وأبدل أحياناً في أسلوب الخطاب وأردية الكلام
ومقتضيات المقام . . . فتلك التي يقال إنها مثقفة أحيطها بجوف فكري ينشط
خيالها ولا يتقل على طبيعتها . ذلك أن طبيعة الأثني في المرأة لها دائماً
المكان الأول . فلنلزم معها الحيلة ، ولنلتجنب الإملال والإثقال . فما من
امرأة تطيق حمل رفيع الأفكار أكثر من قدر بسيط معلوم ، يحسن أن
تتخلله فترة مداعبات عاطفية ، وتفاهات أو محادثات سطحية . أذكر ذات
يوم أن زارتنى امرأتان من طراز أولئك المثقفات . فلبثنا نتحدث ساعة في
بعض الشؤون الثقافية . وشغاني شاغل فانصرفت عنهما طرفة عين ، فما
عدت إليهما حتى وجدتهما تتحدثان في أنواع أصابع « الروح » وأصناف
طلاء الوجه والشفاه . . . آه لو أنهن على الأقل كن يطلين بالثقافة الحقيقية
أرواحهن بالمقدار الذي يطلين به شفاهن ! . .

إني لا أقول لهن هذا الكلام . ولكنني أعمل أحياناً ما هو أقسى من
القول : إني لا أحجم عن أشعار المرأة وهي أمامي بأنها مخلوق تافه حقاً .
ومع ذلك . . . يا للعجب العجيب ! . إن المرأة تثور للكلام ولا تثور للفعال .
إنها تغضب لكلمة تسمعها ، ولا تغضب لصفعة على وجنتها ! . . وماذا
أريد أنا أكثر من إذلالها بغير إثارتها ؟ ! إني رجل يعرف الحب . وقد

أحببت على الطريقة التي تروق للمرأة . . أى ذلك اللون من الحب المزوج
بالتقدير والتحقير . فالإهانة أو الزرابة هو الملح الذى يجب أن يوضع فى الحب
ليكون له المذاق الذى تسيغه المرأة :

بعض الزرابة نافع فى جهنم فلا تغال

هكذا ظفرت بالمرأة ، لأنى عرفت سرها . مفتاح سرها دائماً فى يدي
ألوح لها به عند كل لقاء . فإذا هى تبسم صاغرة ، وتفتح لى مغاليقها من
تلقاء نفسها . إن المرأة ليست مغلقة إلا لذلك الذى أضاع مفتاحها ! . . قد
يسألنى سائل : ما هو هذا السر ؟ فأجيب من فورى هو : الخداع .

لا ترع من هذه الكلمة ! . . هى عندنا نحن الرجال نقيصة ، وهى
عندهن غريزة . منذ فجر التواريخ والمرأة تتزين أى تخدع . لقد عرف
الطلاء على وجه المرأة قبل أن يعرف على جدران الهياكل ! . . وطلاء
الجسم ملازم لطلاء النفس . بل إن النفس هى المنبع . . . فهى بنزوعها إلى
الكذب والتمويه تتخذ الجسم لها مطية . ما من امرأة صدقت فتشجعت
وبرزت سافرة للرجل كى يعرف وجهها الحقيقى ! . .

منذ آلاف الأعوام والمرأة تنفس من إحدى رئتيها بالهواء ، ومن الرئة
الأخرى بالرياء . بل إن الرياء والخداع هما الأكسجين والهيدروجين فى هواء
كل امرأة ! . . ولقد اتخذ الخداع على مرّ الأجيال ألواناً تحاكي ألوان أثوابها
فهو تارة برىء الغرض ، كل مهمته أن يبهر البصر . وهو تارة رداء ضرورى
يستر عورة . وهو فى كل الأجيال سليقة تنطلق بلا غاية ولا هدف . لذلك

ما فكرت يوماً في لوم امرأة لأنها خدعت . إنما كنت ألقاها قائلاً :

خل الملام فليس يثنيها حب الخداع طبيعة فيها
وكانت هي تلقاني وعلى فمي ابتسامة الفاهم شأنها ، المتوقع لكل خيانة
منها . فما تبدو منها بادرة حتى أعاجلها بقولي :

خنها ولا تخلص لها أبدا تخلص إلى أغلى غواليها

نعم . . . المرأة لا تذكر كلمة « الإخلاص » إلا إذا ذكرت أنت كلمة
« الخيانة » . أما إذا رفعت عقيرتك لتتغنى بالإخلاص ، فإن دوى أغانيك
وترانيم أناشيدك ، وإن بلغت السماء ، فإنها لا تبلغ أذنيها . وإن هي سمعت
الكلمة ، فثق أنها نسيت المعنى . . . تلك هي المرأة . . . التي تلقنت درسها
الأول من الحية ، ودرسها الثاني من الشيطان . . .

قلت لك إنى أعرف الحب كما يحلو للمرأة ، لا كما يحلو لأصحاب الخيال .
فاسمع منى النصيح أيها الرجل : إذا أحببت امرأة فاصنع ما أقول لك : لن
أقول لك اليوم بالطبع ما كان يقال قديماً : « إذا دخلت على المرأة فلا تنس
أن تخفي في تلايبك سوطاً » . كلا . . . فإن امرأة هذا العصر لا يربعها السوط
ولكنى أقول لك : إذا لقيت حبيبك فأنشدها :

حبك لا نعمة أراها فيه ، ولكنه جزاء

يا جنة حسنها عقاب يا خمرة عذبتها عذاب

متى متى ينطوى الكتاب ؟ متى فراق بلا لقاء ؟ !

حمارى والمحكمة

قال لى حمارى ونحن نتذاكر الماضى يوماً :

— إنك قد اعتزلت خدمة الحكومة ، ولا ريب أنك تذكر فيها مواقف لك ، لا يمكن أن تحدث لغيرك . ! .
فقلت وأنا شاخص ببصرى إلى القضاء :

— حقاً ... اليوم وقد أصبحت بحمد الله من أرباب المعاشات ، فلا جناح على من ذكر طرف مما كان يقع لى أحياناً أثناء خدمتى فى وظائف الحكومة . ولأنخبر لك عهد اشتغالى فى سلك القضاء . فما زالت فيه حوادث يذكرنى بها من آن لآن بعض الزملاء السابقين . من ذلك تلك الحادثة التى أروىها لك فقد وضعتنى موضع الحرج لحظة من اللحظات :

كنت فى كرسى النيابة العمومية ذات صباح متشجاً بوسامى الأحمر الأخضر ، وكان أمامى « الرول » ذلك الدفتر الطويل الذى تدون فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين والشهود ، وملخص وصف التهمة ومواد القانون الخ ... وبين أصابعى ذلك القلم الذى يجب أن أدون به الحكم الذى ينطق به القاضى فى كل قضية . ولكن الحق يقال : ما من مرة دونت فيها الأحكام كاملة فى ذلك « الرول » . فقد كان سكرتير المحكمة « الله يستره »

هو الذى يسد هذه الخانة بقلمه تليقاً منه وكرماً ، لتفتته بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبعت كل القضايا بيقظة وانتباه . على أن من المبالغة أن تزعم أنى كنت أشرد عن كل ما يجرى حولى طوال الوقت . هنالك قضايا وتفصيل ودقائق كنت أوجه إليها كل التفاتى . . لعلى كنت أعرف بالغريرة ما ينفعنى كروائى مما لا نفع لى فيه . إنى ما كنت أطيق ثرثرة المحامين . . فالقضية التى فيها مرافعة طويلة معناها عندى « غياب ذهن » طويل . . . وربما حوار قصير بين شخصيتين تافهتين فى نظر المحكمة يثير فى نفسى كل تأمل وتفكير . لقد سمعت فى ذلك اليوم الذى أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضى وخفير نظامى تعدت عليه امرأة بألفاظ جارحة :

القاضى — ماذا حصل ياخفير ؟

الخفير — أنا واقف فى دركى جهة نقطة المومسات (يقصد المومسات) ضربت بعينى لقيت الحرمة المتهمه خارجة من بيتها حاطه . . .

القاضى — حاطه إيه ؟

الخفير — حاطه من غير مؤاخذة أحمر وأبيض ومتخططة وفى رجلها الاخلاخيل ولابسة شبشب زحافى ، وواقفة بين الجدعان فى وسط الشارع فى حالة هزار وضحك وصهايل بشكل مخالف للحشمة والكمال . . .

القاضى — وكيف تعدت عليك المتهمه أثناء تأدية وظيفتك ؟

الخفير — قلت لها عيب يا ماموسه . أدخلى بيتك . فما كان منها إلا أنها زغرت لى من فوق لتحت وتقصعت وقالت : « اخرس يا غفير

يا مصدى قطع لسانك . دا أنا لما أنفض شبشبى الصبح ينزل منه عشرين
غفير زيك !

فظهر الاستنكار على وجه القاضى . وظهر الإعجاب على وجهى . ان هذه
المرأة فى نظره قد فاهت بأقصى أفاظ التعدى . وهى فى نظرى قد جاءت
بأخصب صور الخيال الفنى . فما أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة فى تحمير
خفير . لو استطاع ذهن هذه المرأة أن يبدع صوراً أخرى فى التجميل والثناء
كما فعلت فى التقييح والهجاء لكانت شاعرة ، ونظرت إليها وهى فى قفص
الالتهام فإذا هى هادئة ساكنة ويدها على خدها ، ترمقنا بنظرات فاترة . .
وعلى شفيتها ابتسامة لعلها ساخرة . إنها معترفة . ولماذا ينكر شاعر قصيدة
هجائه ؟ لقد روحت عن نفسها بما قالت وكفى . . ماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟
ترى ماذا فى حياة هذه الساقطة ؟ لا أقصد حياتها الظاهرة التى يعرفها
الخفير ورجال الضبط وزوارها وزبائنها ، إنما أقصد تلك الحياة الخفية فى
قرارة نفسها . هنالك ولا شك أشياء كثيرة رأتها وأحسها ولا تكلف نفسها
مشقة التعبير عنها ، ولو انها أرادت أو استطاعت لجاءت بأعاجيب ، ذلك
أنها ستصف الأشياء بطريقتها هى ولغتها هى . . ويالها من طريقة ولغة ! .
لو استطعت أن أجلس إليها وأتلقى عنها ؟ ليس أ كذب من الروائى الذى
يفكر لأشخاصه بعقله هو ويتكلم عنهم بلغته هو ، هذه المرأة مادة قيمة لى
ولكن . . أنسيت أنى أمثل الالتهام ؟ نحن فى الحياة قطبان لا يلتقيان .
وإن التقينا فحول القفص ، لأنى أنا العقاب وهى الجريمة ، أنا السيف وهى

الذبيحة . . لا يمكن أن نلتقى للتفاهم أبداً . . لا تفاهم إلا إذا طرحت عنى
وسامى الذى يكبلنى وانطلقت حراً اغترف من أعماق تلك الشخصيات كما
يفترف المثل من الطين الذى يصنع به فنا . .

ومضت بى الخواطر فى هذا السبيل . . وغمرتنى فلم أدر حتى بالزمن الذى
مرّ بى . . ولم أفطن إلى ما جرى حولى ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا . .
ولم أنتبه إلا على صوت باب حجره المداولة يفتح فجأة وقد ظهر الحاجب فى
حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسيّاً وضعه إلى جوارى وهمس فى
أذنى بقوة :

— سعادة البك مفتش عموم النيابةات ! .

وقبل أن أفيق إلى نفسى دخل المفتش بسرعة وجلس إلى جوارى
وحيانى بصوت خافت . ثم أراد أن يعرف رأى فى القضية المعروضة . فاصفر
وجهى . أى قضية ؟ والتفت أنظر إلى ما يدور حولى فى الجلسة بعيون
زائغة شاردة ، فأبصرت أحد المحامين الفطاحل يرغبى ويزبد ويضرب
بقبضته فى الهواء ويصيح :

— هذا كلام فارغ . النيابة أخطأت فى تكييف وصف التهمة . لو أن
النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلى على حقيقتها لما قدّم إليكم يا حضرة
القاضى هذا المتهم مكبلاً بكل هذه النصوص . . . ! .

فقال مفتش النيابةات يسألنى عن المواد المطبقة على هذا المتهم . فلم أدر
ماذا أقول ولا ماذا أصنع . . وأنا لا أعرف فى أى قضية يتكلمون فى الجلسة

ويتناقشون . . . وشاء سوء حظي أن يكون هذا المحامي سفيفه اللسان فأمعن
في الصياح قائلاً :

— هل هذه نصوص تطبق في حالة موكلتي ؟ هذا تخبط من النيابة .
هذه فوضى . . . هذا سمك لبن تمر هندي . . .
فاهتز مفتش النيابات في كرسيه وانتفخت أوداجه . . . وهمس في
أذني بشدة :

— النيابة أهينت . . . قم دافع عن كرامة النيابة . !
فقلت مداراة للمسألة :

— كرامة النيابة في الحفظ والصون . . .
— كيف ذلك ؟ ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضى ؟
المحامي يقول إن النيابة سمك لبن تمر هندي . . .
فقلت له : أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندي فقط .
فصاح صيحة كاد يسمعها القاضي والحضور :
— لا . . . لا يا توفيق بك هذه إهانة موجهة إلى النيابة . . . يجب على
الجالس في كرسيها أن ينهض لدفعها . . . قم . . . قم . . . وسجل احتجاجك . . .
وابسط وجهة نظرك في تطبيق نصوص القانون . . .

فقلت في نفسي : لو أني كنت أعرف فقط نوع القضية ؟ ولكن الموقف
ساء من كل ناحية . فكان الدفاع بعيداً كل البعد عن ذكر ما يشم منه
رائحة التهمة ، مكثفياً بالتهوئيش والتهويل والطعن في تصرفات النيابة

والبوليس . وكلما أمعن في ذلك هاج مفتش النيابات وماج وانهاه على كمي يكاد يمزقه وهو يطلب مني القيام والكلام . . وأنا متشبت بمقعدى مصمم على التعود والسكوت . وأصبح منظرنا لمن يفهم موقفنا يبكي ويضحك . وقد فطن القاضى إلى الأمر كله وأدرك الورطة التى أنا فيها ، وهو يعرف عاداتى جيداً ويحترم شرود ذهنى دائماً . . فابتسم ابتسامة فهمتها . . فتشجعت وقت أقول بقوة وحماسة :

— النيابة تحتج على الألفاظ التى صدرت من حضرة المحامى . .

فقال القاضى : — المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها وتسمح للدفاع بكامل حريته ، وهو لم يقصد قط فى أى لحظة أن يمس كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد .

وصادق المحامى على قول المحكمة بعبارة مجاملة ، وجلست فى مقعدى أتففس الصعداء وأقول لمفتش النيابات :

— هأنذا قد رفعت لكم رأس النيابة ! . .

ومرت الأعوام وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية فى البلاد . . فكنا كلما تقابلنا وتذاكرنا الماضى ضحك لموقفى ذلك طويلاً . . ولكنه ظل برغم ذلك من المعتقدين بأنى كنت مع كل عيوبى من خيرة رجال النيابة . . عافاه الله ! . .

حمارى والجريمة

قال لى حمارى يوماً :

« لاشك أن الكاتب الخالق يجد نفسه أحياناً فى حاجة إلى ترك عزائه
الذهنية والهبوط إلى طبقات الناس المختلفة ، يدرس أحوالهم ، ويجمع ماينفعه
مادة لفنه . من أجل ذلك يتحتم عليه معايشة أصناف متباينة من البشر .
ويستوى عنده الجلوس إلى العظماء والأثرياء ، واللصوص والأشقياء ، ولا
يفرق فى الاختلاط بين الأجراء والسفهاء ، ولا بين الفاضلات والساقطات ..
الجميع فى نظره نماذج من أشخاص تلك الرواية الكبرى التى تجرى حوادثها
كل يوم على مسرح المجتمع . وهل يستطيع المؤلف الروائى أن يميز فى تقديره
وعنايته — وهو يصور أبطاله — بين شخصية « الرفيع » وشخصية
« الوضع » ؟ . كلاهما فى عرفه وعمله يحتاج إلى عين الدراسة وعين الالتفات .
لذلك يحسن بالروائى الخالق أن يصاحب ويخالط كل المخلوقات على السواء
وأن يراقب ويدرس كل المهن والحرف والطبائع والغرائز . . . « فقلت له :
رأيتك هذا صحيح . . يا حمارى العزيز . ولقد قرأت من أخبار الروائيين فى
هذا الشأن ما يثير الدهشة والعجب . من ذلك أن كاتباً مشهوراً اتخذ صديقاً
له ذلك اللص الأمريكى المشهور « آل كابونى » . وهى ولا ريب صداقة

مفهومة المعنى والغرض . فقد كانت نتيجتها المحتومة ظهور كتاب طريف عن هذه الشخصية الخفيفة العجيبة ، يحوى أصدق الوصف لبيئة كان يجب أن تدرس وتصور وتبرز لمصلحة الفن ومنفعة القضاء . ولكن يا صديقي الحمار فلنفرض جدلاً أنى أردت أنا أيضاً إخراج كتاب ، لا على نسق كتابي « يوميات نائب في الأرياف » ولكن على نسق ذلك الكتاب الأمريكي أسميه مثلاً « يوميات لص في القاهرة » .. أدرس فيه عصابة لصوص بكل ما يحيط بها من بيئة وظروف . واخترت لتلك الدراسة لا طبقة اللصوص الارستقراطيين الذين لا يقربهم القانون . فانت في كنف هؤلاء بئامن . ولكن اخترت أولئك الذين يطاردهم البوليس في كل مكان . أردت أن أصور هؤلاء الخطرين الخارجين على المجتمع وقوانينه . فاتصلت بهم وجلست إليهم وسمعت ما يدور بينهم من مؤامرات . وعلمت أنهم مقبلون على ارتكاب جريمة سطو على بنك من البنوك في ليلة من الليالي ، واطمأن إلى هؤلاء القوم وأمنوا جانبي ووثقوا « بشرى » فوضعوا أمامي الخطة . . . إلى هنا لا جناح على مثلى في نظر القضاء . فليس كل ذلك بعد سوى أعمال تحضيرية غير معاقب عليها . ولكن ليلة السطو جاءت . فترددت هل أذهب معهم أو لا أذهب ؟ . إذا أنا لم أذهب فقد خسرت دراستي . فالفائدة كل الفائدة من حيث الفن الروائى هى فى حضور واقعة السطو نفسها . كما أن قيمة الشريط السينمائى لجريدة الحرب المصورة هى فى التقاط وقائع الميدان بذاتها . لا بد من الذهاب معهم إذن ولو تعرضت للخطر . وقد ذهبت مدفوعاً

بوسواس شيطان الفن . وهنا المصيبة . فقد هجم اللصوص هجمتهم على باب المصرف . فتنبه الحارس وتعرض لهم . فانبرى له أحد أفراد العصابة ، أعرفه بشخصه ورأيته رأى العين ، وقد طعن الحارس المسكين بمديّة طعنة أردته قتيلاً . وأتم اللصوص عملهم ، وانتهبوا الخزانة ، وانصرفوا أو انصرفنا .. يا للكارثة ! إنها جريمة سرقة باكره اقترنت بقتل عمد . إنه الإعدام . إنها المشنقة لا أكثر ولا أقل .. ما مركزي في كل هذا . أنا في نظر القانون شريك من غير جدال ، فقد لازمت العصابة في كل أدوار الجريمة من أعمال التحضير إلى أعمال التنفيذ .. من أول التصميم الجنائي إلى القتل واستلاب الخزانة في أمان الله . انصرفت إلى شأني أفكر في الأمر . وانصرف زملائي بالغنيمة يقتسمون النقود . وجاء الغد وإذا الصحف كلها تنشر بالحروف الطويلة العريضة : « جريمة مروعة فظيعة » ! ..

وجدت رجال الشرطي في البحث ، وانهمك رجال النيابة في التحقيق ، ووالت الصحف ملء الأعمدة بأخبار الحادثة وتصوير ظروفها . وجاءوا بالكلب « هول » ، وأخذت البصمات ، وأجريت المعاينات ، وألقى القبض على كل من حامت حوله الشبهات . كل ذلك كنت أطلعه في حجرتي باسمًا هادئًا . كأنني أطلع قصة بوليسية خيالية . بل إنني كنت أتبع كل ذلك ضاحكًا أحيانًا للفروق الكبيرة بين ما حدث بالفعل ، وما تصور المحققون أنه وقع . إنها لذة فنية أحسستها لأول مرة وأنا أرى الواقعة الواحدة من وجهين : الوجه الحقيقي الذي لا يعرفه غيري وأفراد العصابة ، والوجه الآخر

الذى ينشر على الناس فى الصحف . هنا ينكشف الستار أمامى عن لعب الخيلة البشرية وعملها فى تكييف الحقائق . وهنا أتمتع متعة طارح الأحجية أو « الخذورة » المالك مفتاحها ، وهو يستمع إلى تخبطات وتكهينات الآخرين .. فأمتحن ذكاء الطيب الشرعى وحذق البوليس السرى وفطنة القائمى بالتحريات .. ولقد ابتسمت عند ما قرأت أنهم قبضوا على شقيق زوجة الحارس القليل ، لحدوث مشاحنة بينهما فى الليلة السابقة على الجريمة بخصوص سلوك الزوجة المريب . ومرت الأيام وزج فى السجن بكثير من الأبرياء رهن التحقيق ، ثم خفت صوت الحادثة رويداً رويداً ، فلم تعد الصحف تعنى بها .. وأشارت صحيفة آخر الأمر بأن التحقيق كاد يغلق . وأن القرائن كلها متجهة نحو شقيق الزوجة ، وأن التهمة قد وجهت إليه لأن صحيفة سوابقه بها جرائم مماثلة .. ولأنه متصل بالحارس فهو أقرب الناس إلى العلم بمسالك البنك وأسراره .. ولقرائن أخرى من هذا القبيل اجتمعت كلها وانصبت على رأس هذا المتهم البرىء ..

هنا تيقظ ضميرى الإنسانى . وجعل يهتف بى أن من واجبى التبليغ فى الحال ، وكشف النقاب للبوليس عن حقيقة الأمر . فنهض ضميرى الفنى معارضاً مؤكداً أن واجب الفنان هو السكوت .. واحتدم الجدل بين الضميرين ، فى الحوار الآتى :

الضمير الإنسانى — أتساءل كيف تسكت وقد شاهدت بعينيك رجلاً

لا ذنب له يسقط مضرجا بدمائه تحت مديّة مجرم وحشى ؟

الضمير الفنى — حقاً لقد كان منظراً فنياً رائعاً . .

الضمير الإنسانى — إنى لم أتم منذ تلك الليلة . ولا يمكن أن أنام حتى

يقبض على الجانى الحقيقى . وإنى أتوسل إليك أن تريحنى وتساعدنى على

تحقيق العدالة . . هلم بنا نخبر البوليس . .

الضمير الفنى — أنا لم أر شيئاً أبلغ عنه . .

الضمير الإنسانى — إنك رأيت الجريمة من أولها لآخرها . .

الضمير الفنى — إنى رأيتها كفنان لا كشاهد إثبات .

الضمير الإنسانى — وما الفرق ؟

الضمير الفنى — ألا ترى الفرق ؟

الضمير الإنسانى — إنك رأيت على الأقل المجرم الحقيقى ، وتستطيع

أن تبوح باسمه .

الضمير الفنى — لن أبوح بشيء .

الضمير الإنسانى — اخلق القويم يدعوك أن تبوح ، لتتقذ متهماً

بريئاً ، وتقتض لذلك الحارس المسكين الذى هدر دمه فى غير ذنب لإقيامه

بواجبه الشريف .

الضمير الفنى — إنك تعلم أن اخلق القويم هذا شيء من شأنك أنت .

أما أنا فلا أعرف غير العمل الفنى القويم . وإنى لم أدخل بين هؤلاء

اللصوص باعتبارى مخبراً سرّياً يبلغ عنهم . ولكنى دخلت بينهم بصفتى

فناناً يدرس أحوالهم . . وقد وثقوا بى وأطلعونى — لهذه الصفة — على ما لا يجسرون أن يطلعوا غريباً عليه ، فهل من حقى أن أخون هذه الثقة ؟
الضمير الإنسانى — حقاً يالها من ثقة غالية . . تلك التى تنالها من
أيدى القتلة والمجرمين ! . .

الضمير الفنى — الثقة هى الثقة سواء نلتها من شريف أو أئيم . إن
قيمة الجواهر لا تتغير بتغير الأيدى التى تمنحها .

الضمير الإنسانى — ما أبرعك فى صياغة الكلمات . ولكن هذا
لا يمنع من أنك الآن فى نظر المجتمع والقانون مرتكب لذنوب لا يغتفر إن لم
تبادر فتصحح موقفك .

الضمير الفنى — موقفى الآن صحيح ولا غبار عليه . .
الضمير الإنسانى — هذا رأيك أنت وحدك ، ولكن هب أنه قبض
عليك مع شركائك متلبسين فى مكان الجريمة . . أكانت تشفع لك كل
هذه الفلسفة ؟

الضمير الفنى — هذا سؤال توجهه إلى القضاة . لو أنه قبض علينا . .
ولكن الذى حدث حتى الآن هو أنه لم يقبض على أحد منا . ومع ذلك
فالقضاء يعرف ظروف اشتراكى فى هذا الأمر والبواعث التى دعت إليه ،
وهى كلها شريفة .

الضمير الإنسانى — أرجو منك ألا تتكلم عن الشرف . لقد ظهر لى
أننا غير متفقين على معنى هذه الكلمة .

الضمير الفنى — تريد أن تقول إنى لست شريفاً . . .
الضمير الإنسانى — من الصعب أن أعدك كذلك وأنت تنام ملء
جفنيك مرتاحاً مطمئناً لا يزعجك صراخ ذلك الدم البرىء الذى ينادى
بإحقاق الحق وإقرار العدل . إنك لا تريد أن تخون السفاكين الذين
استأمنوك . وتريد أن تخون المجتمع الذى وضع فى قلبك أمانة الدفاع عنه .
أنت أيها الكاتب الحر . قيم عملك ورسالتك إذن ، إن لم تكن فى النهوض
ذائداً عن حرية الأفراد ودمائهم ، مناصراً للعدالة ، معيناً للحق والقانون . .
الضمير الفنى — يا لها من بلاغة . أنت أيضاً تعرف كيف تؤثر فى
النفوس بمثل هذه الكلمات .

الضمير الإنسانى — أتستطيع أن تكذب حرفاً واحداً مما أقول لك ؟
الضمير الفنى — أنا لا أكذب ولا أثبت . . أنا أصور وأعبر .
الشرف عندى هو فى صدق التصوير والتعبير .

الضمير الإنسانى — أهدا كل واجبك إزاء البشرية ؟
الضمير الفنى — هذا ليس بالشىء القليل . ولأفسر لك الأمر باللغة التى
تفهمها : إن الكاتب الفنان يودى رسالته إلى البشر ، ويعاون فى إصلاح
المجتمع بمجرد كشفه خبايا بيئاته المختلفة بريشة صادقة ، ودراسة أسرار
النفوس الإنسانية والغرائز البشرية وإبرازها للعيون والعقول . . إن عملي
يمثل عمل العالم الكيماى وهو يدرس جراثيم الأمراض تحت مكروسكوبه . .
لماذا لا تذهب إلى هذا العالم وتقول له : « اقتل هذه الجراثيم فى الحال فهى

تستحق الإبادة ؟ إنه لا شك يجيبك باسمًا : « ليس مهمتى أن أبيدها الآن هكذا . إنما ينبغي لى أن أعيش بينها أراقبها وأسجل ظواهرها ، فإذا عرفنا خواصها وخيرها وشرها ، أمكن العلماء فيما بعد أن يستخرجوا لها العلاج ومنها الترياق » ، أنا أيضاً أقول لك الآن : دعنى قليلا بين جرائم المجتمع من أهل الشر والعبر والفجر ، أضعهم تحت « مكرسكوبى » ثم أعيش بينهم أرقبهم وأدون ما يبدو لى منهم ..

الضمير الإنسانى — لكنهم يعيشون فساداً كما تعلم ..

الضمير الفنى — المكفون بمطاردة الجرائم هم رجال الصحة ورجال البوليس . أما رجال العلم والبحث فهم يحافظون على نماذج جرائمهم فى المعامل .

الضمير الإنسانى — آه .. إنى لأعجب كيف أن شريفاً مترفعاً مثلك يستطيع أن يرى القبح والفساد ، وأن يعيش راضياً مطمئناً بين هذه المناظر والظواهر ؟ !

الضمير الفنى — هنا بالضبط نبلى مهمتنا .. ألا ترى ذلك العالم الذى يحقن جسمه بلقاح الجرائم ويعرض حياته كلها للخطر ، من أجل الرغبة فى البحث والاستكشاف .. خدمة لعلمه وللإنسانية فيما بعد .. نحن أيضاً معشر الكتاب والفنانين ، نصنع أحياناً مثل ذلك فى سبيل الفن والمجتمع والبشرية ..

الضمير الإنسانى — قد يكون هذا حقاً .. ولكن برغم كل ذلك أرى واجبك كمواطن شريف أن تبلغ البوليس ..

الضمير الفنى - واجبي عدم التبليغ .
الضمير الإنسانى - بل الواجب أن تبليغ .. كى لا تعطى الناس
القدوة السيئة ..

الضمير الفنى - ليس للناس أن يقتدوا بالفنان فى كل تصرفاته .. كلا
لن أبلغ ..

الضمير الإنسانى - بلغ ..

الضمير الفنى - لن أبلغ ..

واضطرب رأسى تحت ضربات تلك المعركة العنيفة ، فارتميت على
فراشى أطلب النوم تخلصاً من عذاب نفسى وما يدور فيها من حرب
ضروس ..

ولكنى لم أغمض جفنا طول ليلى . ولم يفتر الدوى فى أذنى لحظة بهاتين
الكلمتين الملعونتين : « بلغ .. لا تبليغ .. بلغ .. لا تبليغ .. »

حمارى ومنظرى

قال لى حمارى ، وهو يتأمل جندياً شاباً ، مرةً بنا فى طريقه ولا ريب
إلى ساحة القتال ، ولفت أنظارنا ببهاء طلعتة :
— أنظر إلى هذا الجندى الفاتن ! ماذا عليه بربك لو أعطاك رأسه
تفعل به أنت هنا الأفاعيل ، وأخذ رأسك القبيح هذا ليموت به فى
الميدان الغربى ؟

فلم أرد عليه ... فتلك مسألة طالما فكرت فيها من قبل بينى وبين نفسى .
نعم . . . طالما نذبت سوء حظى ونصيبي وبكيت واشتكيت لأن السماء
خلقتنى هكذا شكلاً وموضوعاً . ولطالما فكرت وتأملت وقلت عن نفسى
ما قال الفيلسوف « باسكال » عن « كليوباترا » : لو أن الله جعل لى أنفاً
أصغر من أنفى هذا لتغير وجه حياتى كله أجمل تغيير . ولكن الله ضمن
على مثلى بهذه المنحة الصغيرة وهى لا تكلفه كثيراً ولا قليلاً ... وكنت
كما ذهبت إلى حلاق وأبصرت إلى جانبي رجلاً بديع القسمات أخاطب
السماء قائلاً : لكأنك يا ربى قبل أن تخلق هؤلاء المحظوظين قد وضعت بين
أيديهم صناديق مملوءة بمختلف أصناف الأنوف والشفاه والآذان والعيون
ليختاروا من بينها ما لذ لهم وطاب . أما أنا وأمثالى فتنبذ إليهم ما بقى بعد ذلك

في قعر الصناديق من « كناسة » أيدي أصحاب الحظوة والنصيب . قلت ذلك كثيراً ورددته طويلاً . . . وإذا أنا أسمع ذات لينة صوت ملاك من الملائكة يهبط عليّ وأنا بمفردى في حجرتي صائحاً بي : « فضحتنا . . . السماء ضجت من تشيعك وتشهيك ! »

— عفواً يا سيدنا الملاك .

— اسمع يا أستاذ . . . لقد جئت إليك لأحقق كل طلباتك حتى لا تتهمنا بعد ذلك بالتحيز أو المحسوية أو غير ذلك من الصفات غير اللائقة . . . ما رأيك لو خلعنا عنك هذا الشكل الذي لا يعجبك وأعطيناك غيره كما تشاء ونحب . . .

— وكيف يحدث ذلك ؟

— تموت ثم تولد مرة أخرى في ثوب جديد . . . وإن لك علينا لعهداً وميثاقاً أن نفتح بين يديك كل تلك الصناديق التي تتحدث عنها لتختار أنت أولاً ما يحلو لك قبل كافة مواليد العالم . . .

— ومن يضمن لي إذا مت أن أولد من جديد ؟

— عجباً أو تشك في وعد أهل السماء !

— كلا . . . ولكن هل أنت تفعل هذا بإذن . . . ؟

— بالطبع . . . وهل يحدث شيء بغير إذن المولى العظيم !

— إن الله حقاً لغفور رحيم . . . وافرحتاه . . . إنه سيعطيني كل ما أريد . . .

— كل ما تريد وكل ما تتخير لنفسك . . .

— هذا شيء جميل ... إجلس إذن يا سيدنا الملاك ولتحدث قليلاً ..
ولا بأس من أن تشير على بما ينبغي أن أختار .. فأنا أخشى أن تبهر عيني
عند فتح الصناديق فلا أستطيع أن أميز الجيد من الرديء ... إني أذكر
سوء اختياري دائماً لألوان « الكرافاتات » و « الجوارب » .. وحيرتي
كلما فتح لي صندوق منها لا نتخاب أحسنها ... وإني لأغرق في ترددي
إلى أن ينتهي بي الأمر إلى تخيير أقبحها وأرذلها دون أن أدري أو أنتبه ...
— أوتريد مرة أخرى أن تحملنا مسئولية اختيار أنفك وفمك ..
لا لا ... يا سيدي الأستاذ .. أو نسيت أنك منذ قليل كنت حضرتك
تظعن في ذوقنا .. وتهمنا في نوايانا .. ؟

— حاشا لله .. أنا لم أظعن ولم أتهم .. إنما كنت أتظلم وأستعطف ..
ولقد تفضلتم فاستمعتم إلى ظلامتي فأكمل فضلك معي وامكث نتبادل
أطراف الحديث ...

— مكثت .. تكلم .. إني مصغ إليك أيها الأستاذ !
— أيها الملاك .. ما رأيك في أن أطلب أن يكون لي شكل
« كلارك جيبيل » .. ؟
— بديع جداً ..

— أليس لك اعتراض .. فلنتفق من الآن والشرط نور ..
— موافق جداً .. بل أكثر من ذلك .. أحب أن ألفت نظرك إلى أن
من حقك بناء على اتفاقنا هذا أن تطلب ما شئت ، لا من حيث الشكل

وحده . بل الأخلاق أيضاً .. ثم الثروة كذلك ..

— عجباً .. الأخلاق .. والثروة ؟

— ولم لا ؟

— إذن فأنا أطلب أن تكون لى ثروة « روكفلر » ..

— معقول جداً ..

— أليس كذلك ؟

— نعم وأخلاق من ؟

— آه .. حقاً .. دعنى أفكر قليلاً .. أظن أنه لا يوجد خير من

أخلاق « غاندى » .. نعم .. إنى أطلب أن تكون لى أيضاً أخلاق

غاندى ..

— عظيم جداً .. شكل « كلارك جيبيل » وأخلاق « غاندى » وثرروة

« روكفلر » ..

— ألا تظن أن هذا كثير ؟ إنى أبالغ بلا شك . إنها قلة ذوق منى ..

إنى أستغل عطف السماء أكثر من اللازم .

— كلا يا أستاذ .. مطلقاً .. لا شىء بكثير على قدرة الله . إن الله

إذا شاء أعطى بغير حساب .

— اللهم شكراً .. أنا الذى طالما تمنى أن يلغى الحساب من الوجود

ساعة تمتد يد الله نحوى بالعطاء . ها هى ذى الساعة أقبلت ..

— ألك طلبات أخرى ؟

— لا يا سيدى الملاك . . أو بقى شىء يطلب : شكل «كلارك جيبيل»
وثروة «روكفلر» وأخلاق «غاندى» . . أأريد أن أنهب الكون؟!
يا للمعجزة أنى سأغدو أعجوبة ولا شك فوق هذه الأرض! . . إنى سأصنع
العجب العجاب . . .

— سوف نرى .

— وهل هناك شك فى أنى سأملك من الوسائل ما أصنع به الأعاجيب؟

— أى نوع من الأعاجيب؟ إنا لم نتفق بعد على اسمك وعملك؟

— اسمى وعملى؟

— بالطبع يجب أن يكون لك اسم وعمل فى حياتك الجديدة .

— حقاً . هذا ما نسيت أن أفكر فيه . .

— ثم يجب أن تكون لك جنسية! أمثل «جيبيل» و «روكفلر»

أمريكياً أم مثل «غاندى» هندياً هندوسياً . . أم . .

— هندياً هندوسياً . . . ما هذا الكلام أيها الملاك . . ومتى أتعلم هذه

اللغة . . لا . . لا ياسيدى . بسّط كل هذه الإجراءات . واتركنى كما أنا

مصرياً وليكن اسمى «توفيق الحكيم» كما أكون الآن .

— لا بأس فى ذلك ولا مانع لدينا مطلقاً . وعملك؟ هل تريد أيضاً أن

تبقى كاتباً كما أنت . . .

— طبعاً . . طبعاً . . وهل يمكن أن يكون «توفيق الحكيم» شيئاً

آخر فى الحياة غير ذلك .

- آه يا سيدي الأستاذ .. سوف نرى .. سوف نرى ..
- ترى ماذا؟ إنك تخيفني بهذه اللهجة المبطنة بالشك والريبة .
- لا تخف .. إني ما جئت لأخيفك .. إنما أنا هنا الآن لأننيك ما تشتهي .. ولكنك أردت أن تتجاذب أطراف الحديث وقد جرننا الكلام إلى ما يعنيني وإلى ما لا يعنيني .. وإني لأرى الفضول يدفعني إلى أن أوجه نظرك إلى أمر .. هل تسمح ..
- العفو .. ياسيدي الملاك .. تفضل وجه نظري إلى حيث شئت ..
- هل تتصور ما سوف يحدث غداً يا « توفيق الحكيم » وقد أصبح لك شكل « كلارك جيبيل » وتصوف « غاندي » وثروة « روكفلر »؟! — ماذا سيحدث؟
- تخيل .. تخيل يا سيدي الروائي .
- تخيل أنت يا سيدي الملاك .
- إذا سمحت لي فإني أقول لك إن الذي سيحدث هو أن شكلك الجديد الجميل سوف يجعل كل الجميلات يرتمين على أقدامك ..
- الله يسمع منك بجاه النبي !!!
- ولكن .. حيث أن لك تصوف « غاندي » فإنك لن تلتفت إليهن .. وستنقع من الحياة كلها بتلك « العنزة » وتحلب من لبنها وتشرب ...
- وهل هذا معقول! ..
- وعند ذلك تنصرف عنك الجميلات يائسات ساخطات متسائلات

عن كنه ذلك المخلوق الغافل عن جماله القانع بعنزته وصومعته وخياله .

— معهن حق . . . هذا مخلوق يستحق الشنق !

— هذا هو الجمال مع التصوف ..

— لا . . . يا سيدى .. احذف التصوف من فضلك .

— إذن فليكن الشكل « كلارك جيبيل » مع أخلاق من ؟ . . .

— أخلاقي أنا تكفى . . .

— أخلاقك كما هي الآن . . . عظيم . . . إذن فلتكن أنت بالشكل

الجميل وثروة « روكفلر » .. أتدرى ماذا سيحدث ؟ سيحيط بك جميلات

الأرض حباً في صورتك وطمعاً في ثروتك . . .

— أهلا وسهلاً ! .. وأنا لا أتمنى على الله ولا عليك أكثر من ذلك . . .

— ولكن . . . بما أنك تريد أن تبقى كاتباً روائياً . . . فأني أظن من

الصعب عليك أن تجد وقتاً تتخلص فيه من أذرع النساء لتجلس أمام الحبر

والورق . . . وإذا وجدت الوقت فلن تجد الدافع الذى يحفزك إلى العمل . . .

أين فى تاريخ الأدب والفن ذلك المليونير الوارث الذى يحنى ظهره ليكتب

أو يخلق . . . إن لذة الفنان هي فى أن ينتج ويقوم بتأجه بعد ذلك بالذهب

أو بالمجد . . . هو الذى يوجد المال بفنه . . . أما إذا وجد المال قبل ذلك عن

غير طريق فنه فإن نصف لذة الخلق الفنى تضع . . . ونصف الحافز

على الإنتاج يذهب . . . المليونير الذى أصبح فناناً عظيماً غير موجود . . .

ولكن الموجود هو الفنان الذى قد يستطيع بفنه أن يكون مليونيراً . . .

— آه يا سيدي الملاك . . . إذن لا ضرورة لثروة « روكفلر » ؟ !
— فكر في الأمر يا سيدي الأستاذ . ربما كنت غير مصيب . .
فشئون الفن تعرفها أنت أكثر مني . . . إني كما تعلم لست فناناً . . أنا
ملاك فقط . .

— العفو . . العفو . . إن رأيك في الحقيقة فيه شيء من الصواب . .
إننا لا ننتج في الفن من أجل الثروة أو على الأقل ليس من أجلها وحدها . .
ومع ذلك فما ألد طعم المال الذي يأتي ثمرة الفن . . حقاً إني لأحس هذا
الشعور دائماً . . ما أتفه المال الذي يأتيني من غير طريق فني .
— أرايت اللذة التي تحرم نفسك إياها بطلبك ثروة تأتيك
من السماء !

— نعم . . نعم . احذف ثروة « روكفلر » .
— إذن فليكن لك فقط ما طلبت : شكل « كلارك جيبيل » .
— وهذا يكفيني ولا أطلب غيره .
— عظيم . . سنبقى أنت كما أنت ولكن في صورة جميلة . وطبيعي
أنك ستكون محبوباً من الحسان . . هذا لا مفر لك منه ولا حيلة لنا فيه .
— وما الضرر يا سيدي . . أعزك الله ؟ !
— لا ضرر . . ولكن . .
— ولكن ماذا . . صارحني بربك وأرخني . .
— فنك ؟ . أيبقى هوفنك أم يصبح فن رجل آخر ؟ . إنك تعلم

أكثر منى أن الفن يتغير بتغير طبيعة القلب الذى يخرج منه . إنه كالماء الذى ينبثق من الينابيع . . فهو حار إذا نبع من بقعة الزلازل والبراكين ، بارد إذا صعد من أرض الأمن والاطمئنان .

— لم أفهم بعد . . .

— لعل الأصح أنك لا تريد أن تفهم . لكن لا بأس من أن أوضح لك ، ولن آتى بكلام من عندى . حسبي أن أسوق إليك كلمة أنت نفسك قائلها وواضعها على صدر كتاب من كتبك : « إن صاحب الحياة السعيدة لا يكتبها . . بل يحيها »

— تريد أن تقول إنه إذا كان لى شكل « كلارك جيبيل » وحياته السعيدة فإنى سأحيها ولن أكتبها .

— لست أنا الذى قالها . بل أنت الذى قلتها ، ونشرتها .

— ومن أدراك أنى لم أخطئ ولم أغلط . أنا رجل كثير السهو والغلط . . لماذا لا أجرب . دعنى أجرب يا سيدى العزيز . ماذا يضيرنا لو جربنا . إن التجربة وحدها هى التى تلهمنى وتهدينى . ولقد عزمتم على أن أجرب بنفسى كل شئ . وأن أهبط وأرتفع وأنهض وأقع فى أجواء الحياة والمجتمع فامنحنى شكل « جيبيل » ولا تحرمنى هذا الطلب الوحيد عافاك الله وأبقاك .

— لا تخدع نفسك . . أو اخدعها وأنا غير مسئول عن النتيجة .

خذها منى كلمة صادقة : إذا تغير شكك تغير تفكيرك وتغيرت نظرتك إلى

المجتمع والحياة . وأصبحت شخصاً لا علاقة له بتوفيق الحكيم لا من بعيد ولا من قريب .

- أحسن . . وأنا لا أريد أن تكون لى بحضرتة أى علاقة .

- هذا شيء آخر . ولكننا اتفقنا من مبدأ الأمر على أن تحتفظ باسمك وشخصك وعملك .

- وبعد ؟

- وبعد فإن الله لم يترك شيئاً للمصادفة . . إنه خلقك هكذا لنتج فناً هكذا . فإذا تغير أنفك تغير فنك !

- وبالاختصار . . أيها الملاك .

- بالاختصار أيها الأستاذ . . ليلتك سعيدة وأحسن ظنك بحكمة

ربك الذى لم يخلق شعرة من شعر رؤوسكم عبثاً . .

وهكذا انتهى الحوار بينى وبين الملاك المفضل وأنا كما أنا لم أنل شيئاً

ولم أربح شيئاً . وتحرك الملاك ليرتفع من حجرتى عائداً إلى السماء فصحت به مستوقفاً :

- لحظة واحدة من فضلك . . يظهر أن الحائل بينى وبين كل خير

هو هذا الفن المزعوم . أنا يا سيدى « متنازل » عنه .

- تنزل عنه من أجل شكل جميل ! ؟

- المسألة فى نظرى تستحق المفاضلة .

- أنت وما تريد . ولكنها أنانية منك أن تضحى عمك الذى تؤدى به

خدمة عامة في سبيل صفة شخصية تنال بها متعة خاصة .

- أنانية .. أنانية .. أنا راض بهذا الوصف لكن غيروني ..

أنا طالب التغيير .. أنا حر في نفسي ولا أحد شريكى ...

- لك شريك ... هو وطنك ... فإذا وافق أهل بلادك على أن

يؤخذ من بينهم « فنان » ليستبدل به « دون جوان » فلا مانع لدينا من

إجراء عملية الاستبدال ..

وهكذا عقد لي الإجراءات بدل تبسيطها .. وارتفع سريعاً قبل أن

ينتظر مني جوابا . وتركني وحدي كما كنت أمام ورقى وحبلى وحمارى ..

لم أتقدم ولم أتأخر ..

حمارى وصورتي

دخل على حمارى يقول متعجباً :

— بلغنى اليوم أن صورة لك « زيتية » أو « باستيل » ، لست أدرى على التحقيق ، قد بيعت بمائة جنيه ! فمن هو هذا المثرى المسرف المتهور الذى أقدم على دفع هذا الثمن فيك ؟ !
فقلت له هادئاً :

— هذا المثرى المسرف المتهور؟ هذا ما أزيح لك عنه الستار بعد قليل .
ولأبدأ القصة من بدايتها فأقول لك : إنى كنت جالساً ذات يوم حيث اعتدت الجلوس ، وإذا مصور أقدر مواهبه هو « صلاح طاهر » جاء يقترح على رسم صورة لى كما صنع للعقاد ، وأرانى نسخة فوتوغرافية للوحة العقاد ، فقلت له : « هذا حقاً بديع ، ولكن العقاد له من حسن سمته ما يستحق التصوير ومن عمق حسه ما يستوجب التعبير ، أما أنا فإذا يغريك بتصويرى ؟ » . وقصصت عليه حكاية نقلت إلى عن مثال خطر له أن ينحت لى تمثالاً ، ولم يكن قد رآنى ، فسأل عن مكانى فوصفوه له ، فجاء ومر أمامى دون أن أشعر ، ثم عاد إلى أصحابه يقول لهم فى خيبة أمل : إنه بعد أن شاهد شكلى عدل عن صنع التمثال . ولكن هذا المصور لم يحذ

حذو زميله النحات وأصر على عزمه .. ونظر ملياً إلى جلستي بعصاي وقال :
« لا تتحرك . هكذا أضعك على لوحتي كما أنت الآن .. » وبدأ عمله بالفعل
بعد أن هون على كل مشقة ، وأعفاني من كل كلفة ، وتركني أسبح في
ملكوتي - كما يقول - وأنسى نفسي وأنساه ...

وفرع من الصورة . وكان الشرط الذي بيننا قبل أن يبدأها هو أن
ينصرف بها بعد إتمامها . وقد عجب لذلك أول الأمر . ولكنني سألته :
« ألم يتفق لك أن صورت حماراً (ولا مؤاخذه) أو حصاناً أو غراباً ؟ »
فقال : « اتفق لي كثيراً »

فقلت : « هل كنت تعطى هذه الصور لأصحابها المذكورين ؟ »
فقال : « بالطبع لا »

فقلت : « أنا أيضاً أفعل معي ذلك »

فوافقني كل الموافقة . ولما عرف فيما بعد أنني أعيش مجرداً من كل ترف
أو تحف أو ذكريات .. حتى كتبي التي أنشرها لا أحتفظ بنسخة منها
لنفسى ، عذرتني . ثم قال :

— إنى فى الحقيقة كنت عازماً على عرض هذه الصورة للبيع فى معرضى
الذى سأقيمه قريباً .

— للبيع ؟ .. ومن هو هذا المجنون الذى يشتريها ؟ !

— طبعاً لن تكون امرأة .. هذا مفهوم !

— إلا إذا اشتريتها لتبصق عليها صباح مساء ..

وانصرف المصور بالصورة . . ونسيت أمره وأمرها . وانتهى خبرها
عند هذا الحد . . وإذا صديق الصاوى يخبرنى ذات يوم أنه رأى اللوحة
معروضة فى ستوديو الفوتوغرافى « خورشيد » ، وأنه أعجب بها إعجاباً
شديداً . والصاوى صاحب ذوق فى سليم بالفطرة والسليقة ، وأنه ليلبغ
أحياناً فى حبه لاقتناء كل جميل من التحف والصور مبلغ التهور . فى
حجرته صورة لجوزفين بيكر ليست سوى مجرد نسخة عن أصل معروف
دفع فيها عشرين جنيهاً . ولقد علمت أنه كان فى باريس يشتري ما يفتنه
من التحف بالتقسيم ، إذ كان طالب علم يعوزه المال ، ولم يكن بعد
صاحب أرض تدر عليه العسل والعنب والقول السودانى . . فلما أثنى على
الصورة صدقته . . ثم عرجت بالحديث إلى مجرى آخر . . فقد احتدم بيننا
منذ يومين خلاف حول أمر غاظنى منه كل الغيظ وأطلق لسانى بتأنيبه
أعنف التأنيب . ذلك أنه كان قد نوى شراء وقادة أو « ولاعة » سجاير
للجيب رآها فى « فترينة » جواهرى معروف ثمنها ٢٨ جنيهاً . فاتهمته
بالسفه الذى يوجب الحجر عليه ، فلم يرعو . . وإذا به ذلك اليوم يصارحنى
بأنه لم يقو على إغرائها فاشتراها . . وأخرجها من جيبه مغتبطاً وأوقد بنارها
سيجاره وأنا أنظر إليه على « نار » . . فما أن رآنى على هذه الحال حتى
ابتسم وقال :

— تسمى هذا سفهاً وإسرافاً وجنوناً . فما بالك لو عرفت ما هو أدهى؟!!

— ماذا أيضاً؟ لم يبق إلا أنك اشتريت لامرأة جوارب بمائة جنيه !

— دعها مفاجأة . لن أقول لك الآن . .
وتحدثنا في أشياء أخرى . . وتشعب بنا الحديث . وقبل انصرافنا
قال لي :

— إني قد أعددت لك بعد غد وليمة عشاء . .

— وما الموجب ؟

— أليس من حق أن أحتفل بك ؟

— إياك أن يكون غرضك أن تقترض مني نقوداً ؟ !

فهبته عالياً . واقترقنا . . ومضى اليومان ، وذهبت إلى وليمة الصاوى .
فماذا وجدت ؟ وجدت مائدة منصوبة بألوان الطعام والشراب . ولكن لم
يكن هذا هو المقصود . . فقد كان بيت القصيد تلك المفاجأة التي سبق
إليها التلميح : تلك صورتي معلقة في صدر المكان ، محاطة بإطار بديع من
خشب الأرو النفيس . وإلى جانبها مصورها صلاح طاهر يقول لي :

— هذا هو المشتري : الأستاذ الصاوى . . دفع فيها مائة جنيه فضلاً
عن الإطار الذي كلفه عشرة جنيهات . . ومنحني فوق ذلك حق عرضها
في المعرض لمجرد العرض .

فغمغمت كالحالم : « المشتري ؟ ! »

فقال الصاوى باسمًا : « المجنون ! »

في الحق إني فوجئت . . وقد أسفر الموقف عن جد لا هزل فيه .
وقد تأثرت فعلاً كما تأثر معي صديقنا الزيات صاحب مجلة « الرسالة » وكان

حاضراً . وتركنا المزاج وواجهنا الأمر بعين أخرى . . واستأنف المصور الكلام قائلاً : إن الصاوى وهو يدفع الثمن نقداً وعداً دون أن يساوم أو يمارس ، كان يخشى شيئاً واحداً : هو عدم ارتياحى أنا لاحتفاظه هو بالصورة ، ومنشأ هذا القلق هو علمه بأن صورتي الزيتية التي صنعها لى « صبرى » منذ عشرة أعوام قد اشترتها الحكومة لوضعها فى متحف الفن الحديث ، فهو إذن كان يحسبني أفضل لرسمى الجديد ذلك المصير المجيد . وهو موافق على هذا التفضيل ، ومستعد أن ينزل عن ملكيته للوحة إذا كانت تلك إرادتى . . فماذا أقول فى كل ذلك ؟ لقد كانوا يتحدثون بهذا حولى وأنا شاردي فى عالم آخر . . لقد خيل إلى أنى لست فى مصر . . بل فى أوروبا . . فهناك نجد أمثال هذا التقدير من الزميل للزميل . فهناك نسمع حقاً أن صورة « ويلز » تزين حجرة « برناردشو » وأن « موروا » يضع كتاباً عن زميله « فاليرى » ليسر على قرائه فهم ما دق من آرائه . أما فى مصر فما نعلم إلا أن فلاناً طعن فى زميله فلان ، وأن هذا الكاتب شتم ذلك . . وقد اعتنقت صحافتنا هذا الأسلوب ، فجعلت تغرى شخصيات الفكر والسياسة بعضهم ببعض للمباريات العلنية فى أحدث ألوان السباب والإقذاع والإسفاف ، حاسبة بذلك أنها تسر قراءها ، كما كان العوام يسرهم قديماً تناقر الديوك وتناطح الخراف . حتى فسدت أذواق قرائنا ، وانحطت مشاعرنا ، وسفلت نفوسنا . وأصبحنا نحن أهل الشرق ننظر إلى العاطفة الرفيعة إذا ظهرت كأنها أعجوبة الأعاجيب ، وإلى العمل النبيل إذا « فلت »

كأنه من الخوارق التي نستكثرها على طبيعتنا . هذا هو المرمى الذي حفزني على ذكر هذا الموضوع . فالناحية الخاصة منه ليست سوى وسيلة ومغزى للجانب العام . إنه درس ومثال . . أرجو أن يعيد إلى قلوبنا الثقة بأن في بلادنا أحياناً روحاً لا يقل سمواً عما في غيرنا من البلاد العظمى .

حمارى والنفاق

قال لى حمارى ، وقد رآنى أتهياً للسفر ذلك الصيف إلى رأس البر :
أتذهب وحدك ؟ فنجلت منه ودعوته . لأن الوفاء يأبى أن أتركه يصلى حرّ
القاهرة وأمضى أنا بدونه إلى المصايف . . ولقد نزل مثلى ضيفاً معززاً مكرماً
على « عشة » أحد الأصدقاء ، وأفرد له مكان بجوارى . وأصبح ينعم بهواء
البحر مثلنا . ويذهب معنا كل صباح إلى « خيمتنا » التى نصبت على
الشاطئ . وينظر كما ننظر إلى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان
ثيابها الزاهية المختلفة ، كأنها معروضات الفترينات قد وضعت فيها محركات
تسيرها أمام أعيننا فوق الرمال . . وكان يحلولى أن أغرق صامتاً فى مقعد
بحرى طويل مريح . وكنت قد أوصيت حمارى بالسكوت . فنحن هنا
للراحة لا للكلام . وقد أذعن لرجائى فلم ينبس بحرف . إلى أن جاء ذات
يوم إلى « البلاج » رجل من معارفنا له جسم قد ترهل وكرش قد برز كأنه
« فنطاس » غاز وهو يرتدى « الشورت » مع قميص قصير الأكمام
فقلت له :

— يالك من رشيق ! يالها من رشاقة !

وهنا لم يتمالك الحمار وهمس قائلاً لى :

— أحقاً تراه كذلك؟

فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطاً :

— طبعاً أراه كذلك . . ولماذا لا أراه كذلك؟! :

فهمس الحمار لى وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه إلى قدمه :

— كيف لا أرى أنا ما تراه أنت؟

فقلت له مغيظاً :

— لأنك أنت حمار .

فأجابنى هامساً :

— ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق؟! :

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بمضيفي ، وقد اطمأن إلى حسن منظره ،

وسارا معا على الشاطيء ، بعد أن ينسا من ذهابي معهما . فأنا لا أحب

المشى . وانفردت بحمارى أصبح فيه :

— أنا منافق؟! :

— مهلا . . مهلا . . أنا لم أقصد إهباتك .

— افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقاً ولكنها مجاملة .

— مفهوم . إنها مجاملة . والمجاملة هي النفاق الصغير . . هي كالجحش

بالنسبة إلى الحمار . ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الإطلاق . إنى

تأملت نفسى ذات يوم وتأملتك وقلت : ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم

معشر الآدميين؟! نحن نأكل الفول ، وأنتم تأكلون الفول . . وإذا كنا

نحن نحبه ممزوجاً بالتبن أو النخالة وأتم تحبونه بالزيت أو الزبدة . فتلك
مسألة مزاج .. ولا يجب أن نسميه فرقاً جوهرياً . إنما الفرق الأساسي حقاً
بيننا وبينكم : هو أنكم تعرفون « النفاق » ونحن لا نعرفه . وقد عللت
نفسى ومنيتها بحلم جميل هو أن تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوماً وأتوسل
إليك أن تعلمنى النفاق . . .

— عجباً ! .. من علمك هذا الأسلوب الهازىء ؟ !

— إنى لست أهزأ . إنى أقول الجد . تلك عقيدتى : لو أمكننى تعلم
النفاق وإدخاله فى فصيلة الحمير لانتقلبنا مخلوقات مثلكم . إنى مؤمن بكل
الإيمان بهذا المبدأ ، وإنى أعمل سراً على تنفيذه منذ زمن . فلا تقف فى وجه
مطامعى وآمالى . خذ منى كل شىء واعطنى النفاق ! .

— ماذا جرى لك ؟ هل جننت ؟ هل أثر فى رأسك هواء البحر النقى
وطعام مضيفنا الشهىء ؟ !

— رأسى بخير . ولقد سألتك شيئاً سوف يحدث انقلاباً فى تاريخ بنى
جنسى ، ولكنك تبخل به علينا وتضن ، فلن ألح أو أثقل عليك بعد
الآن فى الطلب !

— أمرك غريب . أبخل عليك بماذا ؟ أهوشىء عزيز نفيس أستكثره
على مثلك ؟ .. هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمة يحرص عليها الإنسان !
— أما أنا فقد سمعت أن « النفاق » له قيمة كبرى فى الأسواق العالمية .
وأن أجود أنواعه يوجد فى مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن .

— يظهر أنك استقيت معلوماتك من مصادر خبيرة .

— لقد قيل لى إن « النفاق الطويل التيلة » . .

— ماذا تقول ؟ !

— نعم . . إنه كالقطن ، ألا ترى هذا ؟ ! ولعل السبب فى تفوقه وتميزه بطول تيلته أنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع . . فمثلا من الجائز أن يعتنق الفرد رأياً مخالفاً للجماعة فتنهض ضده الجماعة فيقع فى داره صامتاً . . وهذا ما يحدث فى كل بلد آخر . . أما هنا فيحدث غير ذلك . فلقد أخبرونى أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالإلحاد ، فلم يكتفوا بالصمت بل قاموا فى اليوم التالى يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمام الخضر . وآخرون عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامته بل راحوا يتزعمون حركات الحض على الورع . ونساء يرتكبن فى السر الفجور وينادين فى العلن بالفضيلة . وسياسيون قد خلق الله لكل منهم وجهاً واحداً فصنعوا هم لأنفسهم وجوهاً عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطراً . وأسرو عائلات توزع فيما بين أعضائها المبادئ والأحزاب ، كما يوزع الله بين عباده القسم والأرزاق . ومرءوسون يداهنون الرؤساء على حساب الدولة ، ورؤساء يراوون الشعب على حساب المصلحة . وسيدات يردن العبث واللغو فيقلن للناس إنه البر والخير . وأهل دين يملؤون الصحف ضجيجاً حول الأخلاق ويدقون طبلا ضد الرذيلة وما يقصدون فى سريرتهم غير التظاهر والإعلان . ورجال

تقوى يأمرون الناس بالعفة ويستثنون أنفسهم وذويهم . هذا بعض ما يتعلق
بالطرف الأول وهو الفرد . . أما الطرف الثانى وهو المجتمع فله نفاقه أيضاً . .
فقد بلغنى فى ذلك أنه ما من مجتمع فى غير مصر يستقبل المجرم الخارج من
السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز ! . وهذا المجتمع
يشمئز من اللص والآثم والشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من
هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضاً
ويستقبله استقبال الأبطال . بل إن المجتمع ليعرف التاريخ الخجل لهذا
المليونير والماضى المزرى لذلك السياسى فلا يمنعه ذلك من حملهما على الأعناق .
هكذا يرأى المجتمع الفرد ، ويدهن الفرد المجتمع . . ولا يدري أحد أيهما
مصدر « النفاق » . لذلك قيل إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف
أى الطرفين مصدر الآخر . . وكل الذى نعرفه أن النفاق ممتد بينهما
يربطهما بخيوطه المتينة . . وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة . فما قولك فى
هذا ؟ وهل ترأى أملت بالموضوع ؟

— إني أراك بجرأً فياضاً ، وأدهش كيف تسألنى أن أعلمك النفاق وأنت

واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟ !

— لا موجب للدهشة . فأنت تعرف أن العلم النظرى شىء ووسائل

التنفيذ شىء آخر . فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن

ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية فى أى بلد ؟ ! وأنا كذلك درست

تاريخ نفاقكم ولكن ليس من اليسير أن أحدث مثله فى مجتمع بنى جنسى !

— لست أرى في الأمر صعوبة . إنه في غاية البساطة . . . أنا مثلاً
صاحبك الذى تخافه وتهابه ولك عنده مصالح ومآرب .. انظر إلى وجهى :
ألا ترانى جميل الصورة ؟
— أبداً .

— لا تنظر بعين رأسك ، انظر بعين مصلحتك !

— لست أعرف لى سوى العين التى فى رأسى .

— هذه العين افتأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق !

— افتأ عيني وأصير أعمى ؟ !

— هذا هو الشرط .

— وبماذا أرى الأشياء ؟

— بعينك الأخرى : عين مآربك .

— إذن لو أردت إدخال النفاق فى مجتمع بنى جنسى ، ينبغى لى أن

أمر جميع الحمير أن تفتأ عيونها التى فى رؤوسها ؟

— فى الحال .

— وأن تحول مجتمعها إلى مجتمع من العميان ؟ !

— بالضبط .

— وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك ؟

— ولم لا ؟ .. إذا كنا نحن قد قبلناه . .

— اسمح لى أن أقول لك . . .

— صه . . اعرف ما ستقول ولا داعي للإهانة !
وهنا كان الصديقان قد أقبلا عاندين . فأومأت إلى حمارى بالصمت .
وغمزت له بعين رأسى وأنا أقول مشيراً إلى صاحبنا المترهل منشداً :
أهلا وسهلاً بالرشاقة كلها
«بالشورت» والأكام فوق الكرش !.

حمارى والكفاح

قال لى حمارى وقد ذهبنا نمضى الشطر الأخير من الصيف فى
الأسكندرية ، وننعم ساعة الأصيل بالسير الهوينا على « الكورنيش » :
— الحق انى معتبط ها هنا . أين المشى المريح فوق هذا الأسفلت
الناعم من المشى فى رأس البر فوق الرمال التى كانت تغوص فيها حوافرى ؟
— صدقت .

— إنى أراك لا تكره المشى هنا .

— أصبت .

— عجباً ! ما بالك ساهماً مطرماً ؟

— أسكت ! إنك تخرجنى مع أصدقائى . كلما مشيت مع صديق فى

الطريق ظن الناس أنه حمارى !

— وما ذنبى أنا إذا كان الناس يريدون أن يتملقوا أصدقاءك ؟

— أغلق فمك من فضلك ، ودعنى أنس وجودك إلى جانبي لحظة !

— سبحان الله فى طبعك . ما هذا المزاج العكر والهواء جميل ،

خال من الرطوبة هذا العام ، والبحر صاف ، والغيد فى الأسكندرية

حسان . . . والنساء فى السراويل والبجامات بأحمرهن وأبيضهن

كأنهن جوقة « بلياشو » فى « سيرك » متنقل !

— صه . . . لا تحدثني عن النساء !

— أأنت أنت الذي دعاهن إلى ارتداء هذه السراويل ؟!

— تلك فكرتك أنت أيها الحمار !

— أيعقل أن تخطر ببالي أنا فكرة حشر مثل هذه الأجسام البضة المائعة

في هذا النوع من الثياب ؟ أنظر إلى هذه المرأة البدينة وقد صرّت لحمها

المترهل صراً في البنطلون ، وهو يأبى أن يتماسك فصارت كأنها طبق

« الماظية » متفكك سائل !

— لا تبالغ .

— أنظر بعينك .. ما عليك إلا أن تنظر إلى هذا السرب السمين ...

— أنا لا أنظر إليهن قط .

— يا للعجب ! ما من مرة خطرت قربنا حسناء إلا ورأيت عينك

تكاد تأكلها أكلاً بلحمها وعظمها وثوبها !

— كذاب !

— أتقسم ؟

— أقسم أني لا أنظر غير نظرة خاطفة ، وهذا حق شرعاً كما هو وارد

في كتب الفقه والدين . فقد جاء فيها : « لك في الشرع نظرة واحدة

لاحتمال أن يكون القادم أسداً » .

— وهل من المحتمل أن يقبل علينا أسد في هذا الكورنيش ؟!

— اخرس يا حمار ولا تجادلني !

— هذا ليس جواباً مقنعاً .

— افهم أن لكل زمان مخاوفه ، ولكل مكان مخاطره ، وتلك كانت المخاوف في عهد العرب والبادية والصحراء . أما في عصرنا الحاضر فقد تغير نوع الخطر ، وإن لم يتغير المبدأ . فبدل الوحش الهاجم أصبحت السيارة المسرعة . . .

— لست أرى سيارة أمامنا ، ولكنى أرى دبابة . . .

— دبابة؟! أين هي؟

— تلك المرأة المقبلة . فلنخل لها الرصيف ولنهبط إلى الطريق ، إذا أردنا لأنفسنا السلامة !

— هذا أيضاً كما ترى نوع من مخاطر العصر الحديث !

— والكواعب الفاتنات ، كأنهن نسيم البحر ، أعارته يد السحر ، أردية من أجساد الحور الخالدات !

— ما شاء الله! .. الحمار انقلب شاعراً !

— أجب ولا تراوغ . . ما تقول في هذه الباقة المقتربة من الفتيات ، ذوات المناديل الدمقسية المختلفة الألوان فوق شعورهن ، من هو البستاني العبقري الذي نسق هذا البهاء؟ أم هي المصادفة التي جمعت بينهن على هذا النحو؟ أم هو التدبير السابق فيما بينهن ، والاتفاق المبيت على أن يصبحن على الناس متفتحات في هذه الألوان الزاهيات؟! تكلم . . انطق !
ما هذا السكوت؟

- هذا كذلك خطر من صنف آخر .
- بل هي متعة . . . بل هي فتنة . . . بل هو النعيم .
- عجباً ! . ماذا جرى لك أيها الحمار ؟
- يا إلهي ! . . ما الذي صنعت في عامي من جلائل الأعمال لأستحق هذا « التصيف » البديع !
- ما هذا القول السخيف ؟ أو كل هؤلاء « المصيفين » قاموا في عامهم بأعمال يستحقون من أجلها هذه الراحة الناعمة ؟
- لست أتكلم عن هؤلاء « المصيفين » . إنما أتكلم عن نفسي ، بصفتي حماراً من أسرة الحمير .
- أنعم وأكرم !
- لا تهزأ بي ، ولا بجنسي ، بل اهزأ أولاً بنفسك وبجنسك ! فنحن فصيلة قد اشتهرت بالكد والجد . لقد عرفت ظهورنا أشق الأعمال ، ولم تأنف من حمل أخس الأحمال . ما من ظهر فينا رفض « غبيط » السباد ، وما من واحد بيننا تدمر من كثرة العمل وطول ساعاته ، أو من رداءة العلف وقلة دسمة . ما نحن إلا الجلد والعزم والصبر قد صورت مخلوقاً حياً ، لنكون قدوة لأمثالكم من الكسالى المترفين . ولكنكم لا تبصرون ولا تريدون أن تفتحوا أعينكم حتى على خيبتكم الماثلة ! ما من واحد فيكم يريد أن يعرق ليستحق أتمته . موظفكم ينظر إلى ساعة الانصراف ولما يبدأ في العمل ، ويهمله المرتب والترقية ولا يعنيه الإنتاج ، فإذا نقل إلى « الصعيد »

هاج وماج . وطلابكم يريدون أن يجتازوا الامتحانات بغير درس ، ولا
يعنيهم العلم في ذاته ، بل يطلبون شهادة تغطي فيهم الجهل وتفتح لهم الخزان
وتصعد بهم الدرجات . وعمالك يفكرون في زيادة الأجر وإنقاص العمل ولا
يهتمون بالابتقان ولا بمصالح « الزبون » . ورؤساؤكم يعنيهم أن ينشر عنهم
أنهم قاموا بكذا ونهضوا بكذا ولا يهتمهم بعد ذلك قيام حقيقى أو نهوض .
وشبابكم أصبح مثله الأعلى يتلخص في كلمتين : « سيارة وفتاة » ، ولا يعنيه
كيف يحصل عليهما . بل كل أمل وهدفه أن يظفر بهما من غير جهد ولا
جهاد . إن شعار الكثيرين فيكم اليوم هو : « ان السماء يجب عليها أن تمطر
ذهباً وفضة ونحن قعود ! » . . الحلم الذهبي للجميع الآن هو الثراء والإثراء
بغير مجهود . إن الحرب قد حققت بالفعل لبعضكم هذا الحلم ولكن . . .
ماذا أتم صانعون في زمن السلم ؟ بأى سلاح تواجهون التنافس العظيم على
الإنتاج والصراع الشديد على الأرزاق ؟ أمبدأ : « الجهد الأدنى والنعيم
الأسنى » الذى اعتنقه الكل فيكم من شبابكم إلى شببكم ؟ ! .

— حقاً تلك مشكلة لا أدرى لها حلا !

— حلها بسيط .

— ما هو ؟

— أن تعتنقوا مبدأ فصيلتى : « لا راحة بغير عمل ، ولا لقمة بغير

عرق ، ولا ثروة بغير إنتاج » !

— نعتنق مبدأ الحميز ؟ !

— ولم لا؟

— فى الحق ان التطاحن فى الغد هائل . وان حرب السلام ستكون
علينا أشق وأعنف من حرب الدماء . ولقد أردنا أن نجنب أنفسنا الويلات
فى كل ميدان . وأن نهرب بجلدنا من وخزة الدبوس ولذعة «الناموس» ..
ولكن ..

— ولكن آن الأوان لتعرفوا معنى الصبر والجلد والعمل .

— سنعرف ، وسترغمنا الحياة غدا على أن نعرف .

— اليوم خمر وغداً أمر . هلم بنا إلى ستانلى وسيدى بشر وجليم ! ..

— مهلا . ضميرى غير مستريح . وأنت المسئول . ماذا قدمنا من عمل

فى عامنا لتكون جديرين بهذا اللهو والمرح ؟

— قدمنا ..

— كم « غبيط » من السباد حمل ظهرك ؟

— أنت تعرف أنى لا أحمل اليوم سبادا بل أفكاراً .

— يا له من تدهور !

— لا تدهور ولا تقدم ولا تأخر . ما الأفكار سوى نوع من السباد .

وحامل الأفكار كحامل السباد . وما أنت فى الحقيقة غير نوع من .. الحمير!

— أشكرك ..

حمارى والجنة والنار

جلس حمارى إلى جانبي ذات ليلة . . . وكانت الليلة مقمرة . . .
والسحب الرقيقة البيضاء لها هفيف يرى ولا يسمع كأنها أجنحة الملائكة ..
كان كل شىء من حولنا يجعل النفس تحلم أو تفوص فى أعماق الخيال ..
حتى حمارى أطبق عينيه نصف إطباق ، وبدا عليه أنه يريد هو الآخر
أن يحلم . . . ولم ألبث فعلاً أن سمعته يهمس قائلاً :

— ماذا بعد الموت ؟ الجنة والنار ؟

— طبعاً .

— وأنت فى أى مكان منهما ستكون ؟

— من باب التواضع أقول لك فى النار . .

— لو كان لك خيال حقاً لتصورت الآن مصيرك . ما قولك لو حاولت

الآن اختراق حجب الغيب ، لتصف لى ما سوف تجد فى النار من المعارف
والأشخاص والأشياء . . .

فسكت لحظة أفكر . . وقد أثار فى نفسى قول حمارى رغبة حقيقية فى

تخيل ذلك . . ولم يمض قليل حتى صحت فيه قائلاً :

— اسمع ! إنى أتخيل الآن ثلاثة مناظر تجرى على هذا النحو :

المنظر الأول

[جنة الخلد بأشجارها وأطيّارها وفاكهتها وكوثرها وصديق
أحمد الصاوي محمد جالس القرفصاء كثيراً حزينا مفكراً مسنداً
رأسه الأصلع إلى جذع شجرة دانية القطوف . . .]

إحدى الحور - (تمر بالصاوي فتصيح) عجباً ! « ما قل ودل » هنا ؟ !
الصاوي - (يرفع رأسه وينظر إليها) أيدشك ذلك يا آنسى ؟
صدقت والله . أنا نفسى مندهش . نعم ، « ما قل ودل »
هنا ، بلا « أهرام » ولا « مجلتي » ولا مطبعة ولا « كليشيات » !
حتى ولا عزبتي التي كانت على ترعة المنصورية ! . . .
الحورية - أراك ضجراً .

الصاوي - لقد أكلت من الفاكهة حتى تلفت أحشائي . وشربت
من الكوثر حتى انتفخت ، بطني وتسقلت الأشجار وجريت
وراء الأطيّار ، أتعرفين أيتها الأنسة أن شجر المانجو هنا هو
من نفس نوع المانجو الذي عنيت بزراعته في عزبتي ؟ لا بد
أنهم جاءوا بالبذور من عزبتي ! . آه إنها لذكرى حلوة ! . . .
ولكن . . . ما بعد كل هذا . ؟

الحورية - (باسمة) أغازلت الحور ؟
الصاوي - طبعاً . هذا أول ما حصل .
الحورية - أو لم يملك هذا سروراً وسعادة ؟

الصاوى - اسمعى أيتها الأنسة . . . (يستدرك) . . أيتها الحورية !
لا شيء يسعدنى فى هذه الجنة إلا أمر واحد : إصدار
« مجلتى » هنا كالمعتاد نصف شهرية . . (ينهض بقوة) لقد
اختمرت الفكرة فى رأسى طويلاً . إن أهل الجنة فى
أشد الحاجة إلى مجلة تقدم لهم خلاصة أدب العالم وقصصه
ومسرحياته وروائع الأدب المصرى . . كلاً لم يعد هنا مصرى
ولا فرنسى . . لا بأس ، نبحت فيما بعد عن الألفاظ التى
تلفت الأنظار وعن وسائل الإعلان التى تجتذب المشتركين
والمشتركات . على أنى أبدأ بتوجيه النداء إلى الذين انضموا
إلى أسرة مجلتى فى الدنيا ، فهم أولى بالاستمرار فى المساهمة
ومن بادر منهم تمتع بالاشتراك المنخفض مع حفظ الحق فى
الهدايا بمثل ما كان يتمتع به فى الدنيا . . .

الحورية - (باسمه) حتى يعلم المشترك أنه « مع الصاوى يكسب دائماً » !
الصاوى - (باسماً) فى الدنيا والآخرة !

المنظر الثانى

[الصاوى بين يدى سيدنا رضوان عليه السلام على مقربة

من باب الجنة]

رضوان - (كالمخاطب نفسه) ماذا أسمع ! مجلة فى الجنة ؟ !
الصاوى - وما الضرر ! إنها لفكرة بديعة يا سيدنا رضوان ! إن هذه

المجلة ستكون لسان حال المؤمنين والمؤمنات . نعم ، خصوصاً
الأخيرات من الحور الجليات ، فإني كنت في الدنيا أعرف
كيف أكتب فأرضى النساء . ثق أن مجلتي هنا سيكون لها
رواج وانتشار وستطرد الملل من الصدور . إني قد أعددت
كل شيء لإصدارها في ثوب قشيب محلاة بالصور ذات
الألوان . إنه لا ينقصني سوى الكتاب والأدباء الذين
كانوا يمدونني بمقالاتهم في الدار القانية .

رضوان — ألم ترهم هنا ؟

الصاوى — لم أر منهم واحداً هنا .

رضوان — قد خانك ولا ريب النظر رغم منظارك السميك . من تريد
منهم وأنا أدلك عليه ؟

الصاوى — أريد الحاج !

رضوان — أى حاج ؟ اللجنة مكتظة بالحجاج .

الصاوى — الحاج هيكل !

رضوان — (يفكر قليلاً) هيكل ؟ صدقت . إنه ليس هنا .

الصاوى — سبحان الله ! مؤلف « حياة محمد » ! ؟

رضوان — لا تعترض يا هذا ولا تكفر !

الصاوى — اللهم لا اعتراض ! (لنفسه همساً) ترى ماذا صنعت أنا

من الحسنات حتى أدخلوني ههنا !

- رضوان — أتريد أن تسأل عن أحد آخر؟
- الصاوى — أريد أن أسأل عن «العقاد» مؤلف كتاب «عبقريه محمد»؟
- رضوان — العقاد ليس هنا .
- الصاوى — يا للعجب ! يا للعجب !
- رضوان — عمن تريد أن تسأل أيضاً؟
- الصاوى — أريد أن أسأل عن «توفيق الحكيم» فقد كان ألف في دنياه كتاب «محمد» .
- رضوان — توفيق الحكيم ! ليس هنا كذلك هذا المخلوق .
- الصاوى — سبحان الله . . سبحان الله !
- رضوان — هات غيره !
- الصاوى — دلى إذن على «طه حسين» فلقد كان ألف كذلك في دنياه «على هامش السيرة» .
- رضوان — طه حسين ! ليس هو أيضاً هنا .
- الصاوى — اللهم عفوك ورحمتك !
- رضوان — لا تعترض يا هذا ولا تكفر !
- الصاوى — (همساً) لا اعتراض ولا كفر . قد فهمت الآن .
- ما أدخلنى أنا الجنة إلا كتاب «باريس» !
- رضوان — بم تهمس؟

الصاوى - ياسيدنا رضوان ! لى عندك رجاء . أتأذن لى فى الذهاب

إلى النار مدة نصف ساعة فقط ثم أعود ؟ !

رضوان - ماذا تصنع هناك ؟

الصاوى - أقابل هؤلاء الأربعة المساكين ، وأتناول مع كل منهم

« فنجان قهوة » أفتتح به الأعداد الأربعة الأولى من مجلتى

فى عهدى الجديد . . .

رضوان - ماذا تقول ؟ تتناول « فنجان قهوة » فى الجحيم !

الصاوى - (فرحاً) نعم ، « فنجان قهوة مع . . » فى الجحيم ! ياله

من حديث صحفى عجيب مبتكر لم يسبق له مثيل فى صحافة

العالم . نعم . سأفتتح به الصفحة الأولى وأزينه برسم هزلى

بريشة مسيو « سانتيز » !

رضوان - (فى عجب) أوتحسب يا هذا أن فى الجحيم « قهوة » من بن !

المنظر الثالث

[فى الجحيم - الصاوى بين اللهب والدخان يمشى بخطى وثيدة

يتصفح الوجوه . . .]

الصاوى - (يرهف السمع) أسمع ثرثرة ! ينجيل إلى أنى أعرف صاحب

هذا الصوت الجمهورى . . . فلا أقرب منه . عجيباً ! هذا

الدكتور طه حسين ! ترى ما سبب صخبه وضجيجيه . . ؟

طه حسين - (يصيح فيمن حوله) ، نعم ، إني غير راض عن الحياة هنا . إنها فاترة راكدة لا يظهر فيها نشاط ولا إنتاج فحسب ، بل قد يمضى العام كله ، بل قد تمضى الأعوام كلها دون أن يظهر في الأفق حدث من الأحداث . وهذا الركود مؤلم حقاً إذا قارناه بذلك النشاط الغريب الخصب الذى ظهر فى حياتنا الأدبية فى الدار الفانية . فقد كان هذا النشاط قيمياً حقاً ، لفتنا إلى أنفسنا ولفت الناس إلينا . فإذا نحن نرى من أنفسنا ما لم نكن نرى من قبل . نشهد ابتكاراً فى الرأى ، واجتهاداً فى التفكير ، وإنتاجاً فى الأدب ، وخصومات تثار حول هذا كله فتضيف ابتكاراً إلى ابتكار ، واجتهاداً إلى اجتهاد ، وإنتاجاً إلى إنتاج . لا نكاد ننظر فى صحيفة أو مجلة إلا رأينا مظهراً لهذه الحياة الخصبية ، وكان الرأى العام نفسه يشاركنا فى هذا النشاط ، فكانت الجماهير ترضى حيناً وتسخط أحياناً ، وتؤيد تارة وتقاوم تارة أخرى ..

[جماعة من أهل الجحيم تنفصد أجسامهم عرقاً ويتأوهون من عذاب النار يلتفتون نحو طه . . .]

الجماعة - اتق الله يا شيخ ! ألا ترى ما نحن فيه من عذاب ! أى إنتاج وأى نشاط . . فى هذا البلاء ؟ . .

رجل من الجماعة - أتركوه ، إنه أديب !

الجماعة - أو ليس الأديب آدمياً؟ ألا يشعر هذا الرجل بألم السعير
وعذاب الجحيم!
طه حسين - إنما الجحيم حقاً هو العيش بين هؤلاء الهامدين!
[يذهب الأديب]

الصاوى - (يسرع خلفه) يا دكتور! يا دكتور طه! .. إنه يسرع
في خطاه ولا يسمع صوتي من هرج الناس! عجباً! هذا رجل
يشبه العقاد.. بل هو العقاد.. بعينه. نعم هو بقوامه المعتدل
المديد كالرمح الصلب... ما باله يسير هكذا يتصفح جوانب
الطرق كأنه يبحث عن شيء..

العقاد - (يصيح نافذ الصبر) مكتبة يا ناس! ألا توجد هنا مكتبة
واحدة؟ ما هذه المخلوقات التي لا تقرأ! وأنا الذي جاء
النار برضاه واختياره، حاسباً أنه يجد فيها الجبارة من
الفلاسفة والمفكرين والقيم من الكتب والمكتبات..

الصاوى - يا أستاذ عباس! أيها الأستاذ العقاد..

العقاد - (لنفسه) إنه الجحيم.. إن هذا هو الجحيم المقصود. إن المكان
الذي لا يوجد فيه اطلاع ولا تعرف فيه قراءة ولا يسمح
فيه بتفكير لا بد أن يكون هو الجحيم!..

الصاوى - أيها العقاد!.. ما باله لا يسمعي. لقد انصرف! لقد
اختفى!.. آه لقد تعبت. وأخشى أن تفوت نصف الساعة

فيقتل دوني باب . . . عجباً ! هذا رجل كهيكل . كأنني به
يبحث عن أحد بين الجموع نعم هو الدكتور هيكل بعينه !
تري عم ييبحث !

الصاوى - (ينادى) يا دكتور هيكل !

هيكل - (لنفسه يأنساً) لست أجد هنا صديقاً ولا أديباً ! أين زملاؤنا ؟
لماذا لا يتقابل هنا الأدباء ورجال الفكر والقلم ! إن عذاب
النار بالغاً ما بلغ لا يؤلم نفسى قدر ما يؤلمها سبب إدخالى هذا
المكان . . لا سيما وأنا الذى . . .

الصاوى - يا حاج . يا حاج ! إنه لا يسمع ندائى !

هيكل - (ماضياً فى كلامه) أنا الذى قمت بالدعوة للإسلام ولمحمد
بما لم يتم به ألف أزهرى وأزهرى ! ومع ذلك فلنصبر صبراً
جميلاً . (يصيح بأعلى صوته) إن الله وملائكته يصلون على
النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً !

جماعة - (من الأزهريين بقربه ساخرين صائحين) ولو !!

هيكل - (ملتفتاً إليهم) إن بعض الناس ما زالوا يرتابون فى صدق
وإخلاصى ، أولئك هم الحمقى ، أو من فى قلوبهم مرض !
فلنترك لهم المكان . . . [يبتعد]

الصاوى - (فى أثره) يا هيكل ! يا حاج هيكل ! لقد انطلق مسرعاً
ولن أستطيع اللحاق به ! (يلتفت إلى انسان عن كسب

فيصيح :) يا للغرابة ! هذا « توفيق الحكيم » يمر هناك بين
اللهب ملوحاً بعصاه مرتدياً معطفه الصوفي الأسود وهو ينظر
يميناً وشمالاً خائفاً من وجود « تيار هواء » !

توفيق الحكيم — (يبحث حوله) أين « موزار » ؟ لكم تقى إلى رؤية
هذا الموسيقى فى الدار الآخرة ! لكن من المستحيل أن
يكون هنا صاحب تلك الألحان السماوية ! لقد كان حتى
فى دنياه على اتصال بالفردوس . نعم « موزار » الإلهى
هو من أهل الجنة بلا مرأى !

الصاوى — (يخطو نحو توفيق الحكيم صائحاً) يا عدو المرأة !

[جماعة من نساء النار يسمعن صوت الصاوى فيقبلن فى هرج ...]

النساء — (صائحات) أين هو عدو المرأة ؟

الحكيم — (يلقى عليهن نظرة شاملة) ما كل هؤلاء ! ! لم يكن عندى

ريب فى أن تسعة أعشار أهل الجحيم من النساء !

النساء — خست ! لاشىء يعزينا ويثلج صدورنا مثل إدخالك السعير !

الحكيم — وأنا لو لم أجدكن ههنا لاختلط على الأمر وحسبت أنى

فى الجنة !

النساء — (يلتقطن أحجاراً ملتهبة يقذفنه بها) خذ إذن جزاءك !

الحكيم — صدقت الآن وآمنت أنى فى الجحيم !! [يبتعد عنهن هارباً]

الصاوى — (صائحاً) يا توفيق الحكيم . . ! إنه لا يسمع ندائى . ما بالهم

كلهم كأنهم صم لا يسمعون ندائي ! يا عدو المرأة ! إنه
فر هارباً وهن في أثره بالحجارة ! لا أمل لي في مخاطبة
واحد من هؤلاء الأربعة فلأرجع من حيث أتيت
قبل أن . . . [يسير نحو باب الجنة]

رضوان - (يصيح) فات الوقت ! وانقضى نصف الساعة ، وأغلق
دونك باب الجنة أيها الكافر بنعمة ربه ! لقد سعيت إلى
النار بقدميك شوقاً إلى أهلها ، فالبث فيهم واجرع معهم
ما شئت من « فناجين القهوة » !

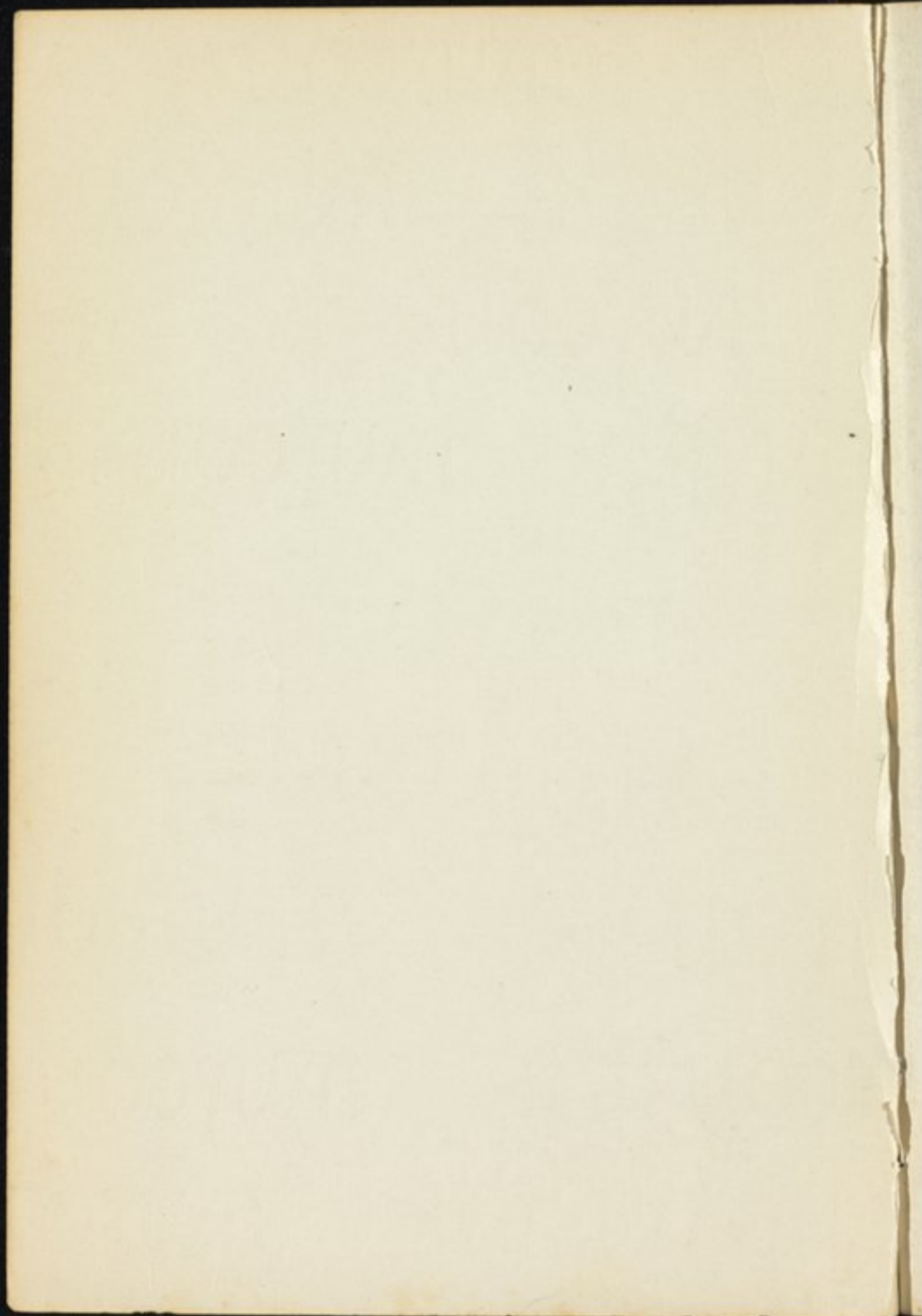
جماعة - (من أهل النار يتساءلون) يا للعجب ! من هذا الانسان
الذي أدخل الجنة فتركها وجاء بقدميه إلى النار . . .

رجل - (من الجماعة) لا بد أنه صحنى !!

الصاوى - (صائحاً متضرعاً) يا سيدنا رضوان ! عفوك ورحمتك ! لقد
شغلنى عن الوقت حرصى على مقابلة الكتاب وجمع المقالات !
ولكن رحماك ! افتح لى الباب هذه المرة ، فانى قد تبت إلى
الله وإليك . ولك على عهد وميثاق ألا يذكر لسانى كلمة مجلة
فى الجنة بعد اليوم . فانى سأعيش كبقية عباد الله الصالحين ،
آكل الأثمار وأسامر الأطيوار وأغازل الحور ! . . .

فهرس

صفحة	
٥	من هو « حمارى » ؟
١٠	حمارى والطوفان
١٩	حمارى وهتلر
٣١	حمارى وموسولينى
٣٩	حمارى ومؤتمر الصلح
٤٦	حمارى وحزبه
٥٤	حمارى والذهب
٦٠	حمارى والسياسة
٦٧	حمارى والطالبة
٧٥	حمارى والقاضية
٨١	حمارى وحزب النساء
٨٧	حمارى وعداوة المرأة
٩٢	حمارى والمحكمة
٩٨	حمارى والجريمة
١٠٧	حمارى ومنظرى
١١٨	حمارى وصورتى
١٢٤	حمارى والنفاق
١٣١	حمارى والكفاح
١٣٧	حمارى والجنة والنار





مستند الطبع والنشر
دار المعارف

التمن
٢٠

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072538935

(NEC)
BJ1588
.A73
H355
1945

E